من أسرار التعبير القرآني
في
سورة التغابن

د. عبد الحافظ ابراهيم البقرى

بسم الله الرحمن الرحيم

يسبح لله ما فى السموات وما فى الارض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير (١) هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير (٢) خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير (٣) يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدر (٤) ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (٥) ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد (٦) زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير (٧) فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير (٨) يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم (٩) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير (١٠) ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم (١١) وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين (١٢) الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٣) يأيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم (١٤) انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم (١٥) فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١٦) ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم (١٧) عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم (١٨)

سورة التغابن فى القرآن الكريم :

سورة التغابن هى السورة الرابعة والستون من سور القرآن الكريم ، وتجىء فى ترتيب السور عقب سورة « المنافقون » وهى السورة السابعة فى الجزء الثامن والعشرين الذى يبدأ بسورة المجادلة ، وسورة المجادلة هى أول سورة فى النصف الثانى للقرآن الكريم من حيث عدد سوره ، اذ سوره أربع عشرة ومائة سورة ، وعلى ذلك تكون سورة التغابن السورة السابعة من سور النصف الثانى من القرآن الكريم بهذا الاعتبار ، وهى أيضا من السور المدنية على الراجح (١) ، وان كانت « أشبه شىء بالسور المكية فى موضوعها وفى سياقها وفى ظلالها وايحاءاتها ، وبخاصة المقاطع الأولى منها ، فلا يكاد الجو المدنى يتبين الا فى فقراتها الأخيرة » (٢) ، ولا ينافى مدنية السورة « أن تكون الفقرات الأولى فيها خطابا للكفار ، بعد الهجرة ، سواء أكانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة كما أنه ليس ما يمنع أن يستهدف القرآن المدنى فى بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة ، وايضاح التصور الاسلامى ، بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكى » (٣) ، ذلك أنه كتاب الدين الخالد ، فحين يعرض للعقيدة يجلوها ، ويتناول ما يواجهها من أباطيل ، ويبرز مزاعم الكفر واضحة ، ليس فى عصر نزوله فحسب ، بل فى سائر العصور ليتأكد بذلك اعجازه ، وتتضافر الأدلة على

---

(١) رجحنا مدنية السورة اذ هو قول الأكثرين ، (ينظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى فقد عدها ضمن ما نزل بالمدنية ، ونبه الى كونها مدنية لدى الأكثرين الألوسى فى تفسيره جـ ٢٨ ص ١٠٤ وكذلك القرطبى أيضا فى تفسيره جـ ١٨ ص ١٣١) . وذكرها السيوطى فى السور المختلف فيها (الاتقان جـ ١ ص ١٣) .

(٢) فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب جـ ٦ ص ٣٥٨٣ .

(٣) السابق نفسه .

أنه كلام .. عالم الغيب والشهادة ، مع ما صحب عرض هذه المزاعم من ذكر أدلة دحضها ، وبراهين بطلانها .. ولعل فى الاعتناء بمزاعم الذين كفروا ، وعرضها فى الجزء الأول من السورة ، علاقة بمعنى التغابن ، حيث نجد هؤلاء الجاحدين المنكرين فى صورة الخسران المبين حين يرث المؤمنون أماكنهم فى الجنة ، فذكر هؤلاء أولا ، وأولئك آخرا ، لما هو معلوم من أن الوارث يعقب الموروث .

أما عدد آيات السورة فثمانى عشرة ، وقد نزلت بعد سورة التحريم .

نهج الدراسة وغايتها :

أما نهج هذه الدراسة فهو البحث والتقصى فى أسرار التعبير القرآنى ، وما تطويه تلك الأسرار من قيم بلاغية معجزة من حيث ما يشتمل عليه التعبير من دلالات ، وما يتضمنه من ايحاءات ، مع بيان ما بين الآى من ترابط وثيق ، فان هذه الأسرار المستكنة ، والعلاقات الوثقى هى مناط الاعجاز ، ومطمح آمل الباحثين عنه ، « ذلك أن طالب دليل الاعجاز من نظم القرآن اذا هو لم يطلبه فى معانى النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ، ولم يعلم أنها معدنه ومعانه(٤) ، وموضعه ومكانه ، وأنه لا مستنبط له سواها ، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها ، غار نفسه بالكاذب من الطمع ، ومسلم لها الى الخدع ، وأنه — أن أبى أن يكون الاعجاز فيها — كان قد أبى أن يكون القرآن معجزا بنظمه ، ولزمه أن يثبت شيئا آخر يكون معجزا به » (٥) .

وتبقى الغاية — بعد — متمثلة فى الثمار اليانعة التى تجنى من دراسة الكتاب العزيز مع الاعتراف بأن ما نصل اليه من نتائج ، وما

---

(٤) المعادن (بالفتح) المنبأة والمنزل .

(٥) دلائل الاعجاز ص ٣٤٢ .

نقطفه من جنى ، ان هو الا قطرات من فيض ذلك البحر الخضم الزاخر — واذا كانت اللغة وسائر علومها وسيلة اليه والى فهمه فما أحرانا أن نستعين الوسيلة وصولا الى الغاية ، ولا يصرفنا عن مواصلة المسير وعورة المسلك ، وقلة الجنى ، فان ما لا يدرك كله لا يترك كله ، كما أن القليل من ثمار تدارس القرآن الكريم خير من كثير وكثير من نتاج كلام البشر اذ القرآن هو الحق الذى لا ريب فيه ، بينما كلام البشر لا يخلو من أن يشوب صوابه خطأ ، ويخالط حقه باطل ، ومن ثم كان الوقوف أمام القرآن الكريم وقوفا أمام الحق والصدق ، وحسبنا ذلك دافعا الى الاقبال على دراسته ، والتحليق فى آفاق بلاغته .

وعلى الرغم من كثرة الذى كتب فى التفسير ، وما بذل فيه من جهود أسلافنا — جزاهم الله أحسن الجزاء — فان البحث فى أسراره البلاغية ، وقيمه الجمالية ما زال — ولن يزال — يقف على أبواب تلك الأسرار التى لم يبح بها بعد ، ولذا فكل محاولة فى هذا الصدد مسترشدة بجهود السلف ، مستهدية بأصول البلاغة النقية ، هى جهد جديد يسهم فى الاهتداء الى شىء من هذه الأسرار ، وطبيعة القرآن الكريم تستهوى طلابه كلما دنوا منه ، فيزداد تعطشهم اليه ، ويتضاعف انعطافهم نحوه ، ذلك أنه كما قال فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « .. هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ... » (٦) .

ونحن — المسلمين — قد دعينا الى بذل الوسع واستفراغ الطاقة فى

---

(٦) هذا جزء حديث شريف أسنده الحارث عن على — رضى الله عنه — وخرجه الترمذى (انظر : تفسير القرطبى ص ٤ جـ ١ ط / الشعب) .

التعلم من القرآن ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : « ان هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن هو حبل الله النور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن رد ، فاتلوه ، فان الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما انى لا اقول آلم حرف ولا ألفين أحدكم واضعا احدى رجليه بدع أن يقرأ سورة البقرة ، فان الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة ، وان أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله » (٧) . وقال أبو عبيد فى غريبه : عن عبد الله قال : « ان هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن » قال وتأويل الحديث أنه شبه القرآن بصنيع صنعه الله ــ عز وجل ــ للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم اليه » (٨) .

ولعلنا ــ بعد ما تقدم ــ يتأكد لدينا ما ننعم به من أمن ونحن فى رحاب القرآن الكريم ، واثقين فى الظفر بأطيب النتائج وأحسنها .

معنى التغابن وبيان ارتباط المعنى العام للسورة به :

من اهم ما تميز به الكتاب المعجز : وحدته المعنوية التى يعنى بها وثوق الصلة بين معانى الآيات فى السورة القرآنية ، فضلا عن ارتباط السورة بما قبلها ، واذا كان اشتقاق الاسم من السمة ليكون تمييزا لمسماه ، فان اسم السورة القرآنية ميزها أكمل تمييز حيث نرى معناه منسابا فيها كلها ، فشدت معانيها وألفاظها ، وصورها ، الى ذلك المعنى ،

---

(٧) هذا حديث من اسناد أبى بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى النحوى اللغوى فى كتاب « الرد على من خالف مصحف عثمان » ، عن عبد الله بن مسعود القرطبى فى تفسيره جـ ١ ص ٥ .

(٨) ينظر : تفسير القرطبى ص ٥ جـ ١ .

وسورتنا التغابن •• وأصول هذه الكلمة الحروف الثلاثة « غ ب ن » وهذه المادة « تدل على ضعف واهتضام ، يقال : غبن الرجل فى بيعه ، فهو يغبن غبنا ، وذلك اذا اهتضم فيه ، وغبن فى رأيه ، وذلك اذا ضعف رأيه » (٩) •

و « الغبن أن تبخس صاحبك فى معاملة بينك وبينه فى ضرب من الاخفاء ••• وسئل بعضهم عن يوم التغابن فقال : تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم فى الدنيا » (١٠) •

هذا هو ما تدور حوله هذه المادة : البخس فى المعاملة ــ فى ضرب من الاخفاء ــ والضعف والاهتضام •

ولما كان يوم القيامة هو يوم الجزاء على الأعمال ، جزاء هو أعدل ما يكون « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (١١) فان هذا المعنى للغبن أبعد ما يكون عن الجزاء الذى يلقاه كل انسان ــ من ربه ــ على عمله ، ويكون موطن التغابن بين المجازين بعضهم وبعض ، بل وبين كل انسان ونفسه • مع مراعاة أن المراد بالتغابن معنى آخر مجازى لا معناه الحقيقى ، اذ « هو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شىء منه ، ثم صيرورتهم الى الجحيم • فهما نصيبان متباعدان ، وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شىء ، وليغبن

---

(٩) مقاييس اللغة لابن فارس ص ٤١١ جـ ٤ •

(١٠) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصبهانى ص ٥٣٥ ، ٥٣٦ •

(١١) سورة الأنبياء الآية : ٤٧ •

كل فريق مسابقه ، ففاز فيه المؤمنون ، وهزم فيه الكافرون ، فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك » (١٢) .

والقرآن الكريم كتاب الدين الخالد الباقى ، الذى يخاطب الناس جميعا فى كل زمان وفى كل مكان ، وليس أحب الى النفوس فى كل عصر من الكسب ، والحصول على النفع ، كما أنه ليس أبغض اليها من الخسارة ، وخيبة السعى ، ولذا خاطب النفوس بما هو أقرب اليها ، غبين ما يكون من تفاوت يوم القيامة بين من آمنوا بالله ورسله وسلكوا وفق هذا الايمان ، وبين من أعرضوا عن هذا النهج السوى ، حيث يفوز المؤمنون بالجنة ونعيمها الخالد ، ويبوء الكافرون بالنار والخلود فيها . وحينذاك يشعر كل من الفريقين الشعور الذى يناسب ما انتهى اليه أمره ، فيغمر أهل الجنة بشر وسعادة وتعلو وجوه أهل النار غبرة وقتامة وكآبة .. فقد فسروا فى هذا السباق ، الذى كان بينهم وبين المؤمنين ، وكانت الحياة الدنيا حلبته وساحته .

ويجىء نسق السورة مبدوءا بما يحفز الى بذل كل جهد وصولا الى الفوز فى ذلك السباق حتى يتم انسجام الانسان مع غيره من الكائنات ، اذ هى فى تسبيح دائم لله — عز وجل — ، اقرارا بانفراده — سبحانه — باستحقاق الحمد ، والهيمنة على الكون ولا خالق سواه ، وعلى الرغم — من ذلك كله — فقد جحد بعض أفراد الانسان مقتضيات الربوبية وكفروا بالخالق ، ناسين علمه الواسع الشامل ، وحكمته من خلق السموات والأرض ، وقدرته وابداعه فى احسان تصوير الانسان ، وشيوع الحسن فى جميع أفراده تلك علامات واضحة من تدبره أيقن بحتمية البعث ، لكن الكفار يجحدون البعث وينكرونه ، وغفلوا عما فى

---

(١٢) فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ص ٣٥٨٨ — المجلد السادس .

البعث من رحمة حيث يسود به العدل وينتصف للمظلوم من الظالم ، كما أن اليقين به يقيم الدنيا على ميزان الحق والعدل وينشر بين الناس السلام والأمان .. وما أسهل البعث لدى من آمن بخالقه ، ويا لشقاوة هؤلاء الكافرين ، فقد حرموا أنفسهم — بكفرهم — نعمة الأمن المستمدة من الايمان بالله تعالى ، والمركون اليه ، وعاشوا محرومين من نور السماء الذى أنزله الله .. واذا كانوا فى غفلة عن هذا كله ، فان الله تعالى يضع أمامهم صورة للبعث من شأنها أن تدفعهم دفعا الى ما فاتهم من آثار الايمان ، فيريهم العالم كله ولقد جمع للحساب « يوم يجمعكم ليوم الجمع » وآنذاك تظهر آثار الاختيار ، ويقطف كل جنى ما غرسه ، وبعد اجتناء الثمار يشعر أهل الكفر بخيبة المسعى ، ولا سيما حين يطلعون على ما أعد للمؤمنين من نعيم ، ولا مجال حينئذ لاستدراك فائت ، فما أحرى أن تستثير تلك العاقبة كل الهمم ، انها صورة نهائية للعالم لا مجال فيها لتغيير أو تبديل تلك التى تكون فى يوم التغابن ، ثم يبين الحق — تبارك وتعالى — ما يكون فى هذا اليوم من اختلاف فى الجزاء طبقا للاختلاف فى الاختيار ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يجزون بتكفير السيئات ، ودخول الجنات ، مع الخلود الأبدى فيها ، وذلك غاية الفوز ومنتهاه ، والذين كفروا وواجهوا الحق بالتكذيب هم أصحاب النار لهم فيها الخلود الدائم ، وليس ثمة أسوأ من هذا المصير .

وبعد هذا البيان الواضح لما يكون فى القيامة ، ودق الأجراس مدوية مصلصلة فى آذان الكفار مؤكدة حتمية البعث ، نرى السورة تعود بنا الى نغم هادىء يؤكد هيمنة الله — سبحانه — على الكون ، فما من مصيبة فى الأرض ولا فى النفوس الا باذنه والايمان يعصم أهله من الجزع والهلع عند نزول المصائب . وتتوالى — بعد ذلك — الدعوة الى الطاعة : طاعة الله وطاعة الرسول — عليه الصلاة والسلام — انقاذا للنفس من خسارة الدنيا وخسران الآخرة . ولا يضير رسول الاسلام — بعد — ولا الدعاة الى الله — على نهجه وطريقه — أن يعرض فريق

من الناس عن الاجابة ، فان دور الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو البلاغ المبين . وفى هذا المنغم الهادىء من دعوة الى طاعة الله وطاعة رسوله ، وبيان المهمة المنوطة به ــ عليه الصلاة والسلام ــ من التبليغ دون الجبر والحمل على الايمان ــ يذكر التوحيد ليكون بمثابة الركيزة والدعام الذى يقيم عليه المؤمنون حياتهم ــ اعتقادا وسلوكا ــ ولذا فان اعتمادهم وثقتهم فى نتائج عملهم وجهادهم ، كل ذلك يتطلعون فيه الى الله تعالى وحده ، انه التوحيد الفيصل بين الايمان والكفر ، والسمة الصادقة للايمان الصحيح « الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » واستنقاذا للمؤمنين من الخسارة ، ودفعا لهم الى الحرص على احراز قصب السبق فى مجال التنافس فى الخير ، يجىء النداء للمؤمنين مبينا لهم ما يمكن أن يثقل خطاهم ويعوق مسيرتهم الى الله ، فيبوءوا بالخسارة يوم القيامة ويشعروا ببخس فيما قدموا ان ذلك كله يكمن فى الأزواج والأولاد حين يستبدون بالقلوب ، ويهيمنون عليها فيشغل المرء عن ربه ، فليكن الحذر من اغرائهم ، ولتضبط العواطف نحوهم ، فانهم ــ ومعهم المال أيضا ــ فتنة وابتلاء « انما أموالكم وأولادكم فتنة » ، ومهما كان اغراء الأموال والأولاد ، فان الانخلاع من سطوة اغرائهما دليل تأجج الايمان فى النفوس ، ولذا كان له عظيم الأجر عند الله ــ تعالى ــ .

وبعد تخليص النفوس مما عساه يقعد بها عن اللحاق بركب الايمان يجىء استنهاض الهمم الى بذل أقصى جهد فى سبيل تقوى الله ــ تعالى ــ والسمع والطاعة له ولرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والانفاق ــ من كل ما منحه المؤمن ــ تخليصا لنفسه من الشح الذى طبعت عليه ، وما أجمل وألين دعوة الله ــ تعالى ــ الى الانفاق ، وذلك أنه ــ سبحانه ــ المولى للنعم ، والمالك لها ولمن أولاهم اياها ، ومع هذا يدعوهم أن يقرضوه وأن يحوطوا هذا القرض بشرف الغاية ، ونبل المقصد ، وسلامة

النهج حين العطباء حتى يتحقق معنى الحسن لما أقرضوا ، ثم يعدهم الجزاء المضـــاعف على هذا القرض ، والمغفرة لمـــا اقترفوا من ذنوب ، ويعلق أنظارهم بفيض عطائه ، اذ هو ــ سبحانه ــ شكور يعطى الكثير على القليل ، حليم يعفو عن السيئة ، ويغفر الذنب لمن أجاب النداء وأنفق ــ عن ايمان ــ أملا فى حسن الجزاء •

وما أجدر النفوس المؤمنة أن تستشعر دائما رقابته ــ سبحانه ــ وقوته البالغة التى لا تغالب ، وحكمته العامة الشاملة ، انه ــ تعالى ــ « عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » •

وهكذا يتخلص المؤمنون ــ اذا استجابوا لربهم ــ من كل شعور ببخس أو اهتضام أو ندم على تقصير ، فيكونون بمنأى من الخسران ، ويرثون الأماكن التى أعدت للكفار فى الجنان ، ويشعر هؤلاء (١٣) ــ حينذاك ــ بانتقاص اختيارهم ، وانحطاط سلوكهم ولا مكان لتعويض ما فات ، واستدراك مافرط من مخالفات،ذلك أن اليوم «يوم التغابن» •

وجه ارتباط السورة بما قبلها :

تلت سورة « التغابن » سورة « المنافقون » والصلة بينهما تبدو ــ فى أن سورة « المنافقون » تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنـــافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم ، وما فى نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب (١٤) ، فهى تظهر ما يبطنون ، وتكشف ما يسترون ، وسورة « التغابن » تحمل على الكفر الصريح ، تعرض مزاعمه من انكـــار لبشرية الرســـل ، وتكذيب

---

(١٣) الاشارة الى الكفار •

(١٤) فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ص ٣٥٨٢ جـ ٦ •

للبعث ، مبينة زيف تلك المزاعم مع عرض مصائر المكذبين ، وذكر عقبى أولئك الكافرين فى الآخرة تهديدا لهم ووعيدا ..

هذا من حيث الصلة العامة بين السورة وسابقتها ، وثمة نوع آخر من الارتباط ، نراه فى تلك العلاقات الخاصة بين بعض الآيات فى السورتين :

فنرى « تلك السورة مشتملة على بطالة أهل النفاق سرا وعلانية ، وهذه السورة على ما هو التهديد البالغ لهم ، وهو قوله (يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) (١٥) » ، كما يرتبط آخر « المنافقن » بأول « التغابن » ففى « آخر تلك السورة التنبيه على الذكر والشكر ، وفى أول هذه اشارة الى أنهم ان أعرضوا عن الذكر والشكر ، فلنا من الخلق قوم يواظبون على الذكر والشكر دائما ، هم الذين يسبحون ، كما قال تعالى (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) »(١٦) .

كما نحس تناغيا وتناحيا بين بعض الآيات وبعض فى السورتين ، « فقد جاء فى آخر تلك : (لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم) وفى هذه: (انما أموالكم وأولادكم فتنة) وهذه الجملة — على ما قيل — كالتعليل لتلك ، وأيضا فى ذكر التغابن نوع حث على الانفاق — قبل الموت — المأمور به فيما قبل » (١٧) .

(١٥،١٦) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٢٠ ج ٣٠ .
(١٧) روح المعانى للألوسى ص ١٠٤ ، ١٠٥ ج ٢٨ .

الدراســة والتحليل

مع ايماننا بوحدة السورة القرآنية ، ترابطا فى معانيها ، وتناسقا بين وسائلها التعبيرية ، وغاياتها الايمانية ، فاننا نؤثر دراستها مقسمة ، حيث نرى بعض الآيات يشتد اتصال بعضه ببعض لتناوله موضوعا واحدا ، ولذا فاننا ندرس سورة « التغابن » على هذا النحو من كونها مقاطع ، أولها تلك الآيات : « يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير (١) هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير (٢) خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير (٣) يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور (٤) .

وهذا المقطع من السورة « يستهدف بناء التصور الايمانى الكونى ، وعرض حقيقة الصلة بين الخالق ــ سبحانه ــ وهذا الكون الذى خلقه ، وتقرير حقيقة بعض صفات لله وأسمائه الحسنى وأثرها فى الكون وفى الحياة الانسانية ، .. ومن شأن هذا التصور أن يدرك القلب البشرى حقيقة الألوهية » ويراها فى آثارها المشهودة فى الكون ، ويحسها فى ذوات الأنفس بآثارها المشهودة المدركة .. ومن شأنه كذلك أن يعيش القلب البشرى فى حساسية مرهفة ، وتوقع دائم ، وخشية وارتقاب ، وطمع ورجاء ... وأخيرا فان من شأنه أن يحس بالوجود كله متجها الى خالقه فيتجه معه ، مسبحا بحمد ربه فيشاركه تسبيحه ، مدبرا بأمره وحكمته ، فيخضع لشريعته وقانونه ، ومن ثم فهو تصور ايمانى كونى بهذا المعنى » (١٨) .

« يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » .

---

(١٨) فى ظلال القــرآن لسيد قطب ــ رحمه الله ــ ص ٣٥٨٣ ــ ٣٥٨٤ جـ ٦ .

أخبار من الحق ــ تبارك وتعالى ــ بعبودية الكون له : سمائه وأرضه ، عبودية تدوم مظاهرها وتستمر فى تجدد ، وتستنتج هذه العبودية والدينونة له سبحانه الى أسبابها الموجبة لها من انفراده ــ تعالى ــ بالملك ــ على الحقيقة ، واستحقاقه ــ وحده ــ الحمد وقدرته المطلقة التى لا تتقيد بقيد • فجملة « **له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير** » جملة مستأنفة ، ولهذا فصلت عما قبلها ، « وقد يكون : له الملك فى موضع الحال أى سلطانه وأمره وقضاؤه نافذ فيهما » (١٩) وهى حينئذ حال لازمة ، وأيا ما كان فالاستئناف أوقع لما يتضمنه من تقدير سؤال هو مظهر انفعال المخاطب لما يسمع ، فضلا عما فيه من اغناء للسامع عن السؤال • وصنيع صاحب اعراب القرآن يؤذن بايثاره الاستئناف حيث قال (٢٠) : « **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ••** » يكون هذا تمام الكلام » ثم قال : وقد يكون متصلا ويكون له الملك وله الحمد فى موضع الحال فذكر ما يشير الى الاستئناف أولا ، وفى ذكره لما عداه قال « وقد يكون » أى بقلة لما تدل عليه « قد حين تدخل على المضارع ، وقد اشتملت تلك الجملة المستأنفة ، أو الحالية على أسباب ثلاثة : انفراده ــ سبحانه ــ بالملك ، وانفراده باستحقاقه الحمد وأنه ذو قدرة على ما يشاء لا يعجزه شىء لأنه ذو القدرة التامة ، وكلها معان متناسبة فان انفراده بالملك يستلزم استحقاقه الانفراد بالحمد وطلاقة القدرة ، فبين الملك وهذين المعنيين تلازم ، اذ الملك « صفة قائمة بذاته متعلقة بالغير تعلق التصرف التام المقتضى استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه ، ولهذا لم يصح على الاطلاق الا لله تعالى جده ، وهو أخص من الملك (بالكسر) لأنه تعلق باستيلاء مع ضبط وتمكن من التصرف •• من غير نظر الى استغناء وافتقار ، فمالك الملك هو الملك الحقيقى المتصرف

(١٩، ٢٠) اعراب القرآن للنحاس ص ٤٤١ جـ ٤ تحقيق زهير غازى زاهد •

بما يشاء كيف شاء ، ايجادا واعداما ، احياء واماتة ، تعذيبا واثابة من غير مشارك ولا ممانع » (٢١) .

ولما اختص ـ سبحانه ـ بالملك وأولى أصول النعم وفروعها استحق ان يختصه العباد بالمحبة والرضا والثناء على كمالاته ، وتلك أصول معنى الحمد ، اذ هو « الاخبار عن محاسن المحمود مع حبه واجلاله وتعظيمه » (٢٢) ولذا ساغ أن « يكون ابتداء .. وان يكون على المحبوب والمكروه » (٢٣) ، لانه يصدر عن رضا ومحبة .

وقد صيغ هذان المعنيان بما يفيد ثبوتهما ودوامهما ، حيث كل منهما جملة اسمية و « قدم الظرفان (٢٤) ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل » (٢٥) والقصر فى الموضعين حقيقى ، ولذا نرى جمهرة المفسرين يردون على ما قد يثار من كون بعض الناس يملك ، ويسدى اليه شكر على احسان قدمه لغيره فيقولون : « وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء ، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده » (٢٦) ويجىء بعد الانفراد بالملك ، والانفراد باستحقاق الحمد تاكيد القدرة المطلقة التى لا تتقيد بقيود ، ولا تقف عند حدود « وهو على كل شىء قدير » وبناء الجملة فى هذا التعبير على الضمير

---

(٢١) روح المعانى للألوسى ص ٩٩ ج ٣ .

(٢٢) بدائع الفوائد لابن القيم ص ١٠٣ ج ٢ .

(٢٣) بيان اعجاز القرآن للخطابى ص ٢٧ (ضمن : ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ـ طبع : دار المعارف ـ تحقيق : محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام) .

(٢٤) الظرفان : الجار والمجرور فى : له الملك وله الحمد .

(٢٥) الكشاف ص ١١٣ ج ٤ .

(٢٦) الكشاف ص ١١٣ ج ٤ ، وكذا البحر المحيط ص ٢٧٧ ج ٨ وروح المعانى ص ١٠٥ ج ٢٨ .

« هو » يفيد تأكيد الخبر وتحقيقه ، حيث انه مسوق كوطئة لاثبات القدرة على البعث الذى هو موضع انكار من الكفار ، بدليل ما يجىء بعد فى السورة من قوله تعالى « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا » ويسهم فى تأكيد طلاقة القدرة ــ فضلا عن بناء الجملة على الاسم ــ تقديم متعلق الخبر ، مع ما فى هذا المتعلق من كلمة العموم « كل » ، وتنكير « شىء » التى أضيفت اليها ، بالاضافة الى تنكير « قدير » الذى هو خبر ، ويكمن فى هذا التنكير معنى التعظيم ، فيؤكد ألا حدود ولا قيود على تلك القدرة .

ولهذه الأسباب .. يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض » تسبيحا يتجدد ويستمر ، أى « ينزهه ــ سبحانه وتعالى ــ جميع المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه ــ سبحانه ــ تسبيحا مستمرا » (٢٧) والتجدد والاستمرار هما مدلول الفعل المضارع « يسبح » والتعبير بالمضارع فى هذا الموضع أنسب ما يكون بمعنى المتغابن ، اذ هو حث على موالاة التسبيح واستمراره من الانسان ليتناسق مع الكون حتى لا يشعر بالبخس والنقصان فى يوم الجمع .. يوم التغابن ، وقد ذكرت لفظة « ما » فى الموضعين : « ما فى السموات وما فى الأرض » ، لأنه « لما كان تسبيح ما فى السموات على خلاف تسبيح ما فى الأرض كثرة وقلة ، وخلوصا من غير مقارنة المعاصى واختلاطها بها ، أعيدت لفظة « ما » للاختلاف » (٢٨) ..

ونظرة فى مفتتح السورة تطلع المتأمل على أن « كل ما فى السموات والأرض متوجه الى ربه ، مسبح بحمده ، وقلب هذا الوجود مؤمن ، وروح كل شىء فى هذا الوجود مؤمنة والله مالك كل شىء ، وكل شىء شاعر

---

(٢٧) روح المعانى ص ١٠٥ جـ ٢٨ .

(٢٨) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الاسكافى ص ٤٨٧ .

بهذه الحقيقة ، والله محمود بذاته ، ممجد من مخلوقاته ، فاذا وقف الانسان وحده فى خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح متمردا عاصيا ، لا يسبح لله ، ولا يتجه الى مولاه ، فانه يكون شاذا بارز الشذوذ ، كما يكون فى موقف المنبوذ من كل ما فى الوجود » (٢٩) •

وبعد هذا تجىء لفتة تذكر القلب الانسانى بمظاهر قدرة الله تعالى فى خلقه للانسان « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير » • فعن ارادة الله وعن قدرته صدر هذا الانسان ، واودع امكان الاتجاه الى الكفر ، وامكان الاتجاه الى الايمان ، وتمييز بهذا الاستعداد المزدوج من بين خلق الله،ونيطت به أمانة الايمان بحكم هذا الاستعداد ، وهى أمانة ضخمة وتبعة هائلة ، ولكن الله كرم هذا المخلوق فاودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيـــار ، وأمده بعد ذلك بالميزان الذى يزن به عمله ، ويقيس به اتجاهه ، وهو الدين الذى نزله على رسل منه ، فأعانه بهذا كله على حمل هذه الأمانة ، ولم يظلمه شيئا ••• وهو رقيب على هذا الانســـان فيما يعمل ، بصـــير بحقيقة نيته واتجاهه ، فليعمل — اذن — وليحذر هذا الرقيب البصير » (٣٠) •

والنظم الكريم فى تلك الآية يربطها بما قبلها أوثق ارتباط حيث جاءت مفصولة عما قبلها اذ هى « بيان لبعض قدرته العامة ، والمراد هو الذى أوجدكم كما شاء » (٣١) ولمـــا كان الانسان هو المخلوق الذى انفرد بكونه قد انقسم الى : مؤمن وكافر فقد أخبر سبحانه بذلك فقال بعد أن ذكر نعمته وبين بخلقه للانسان بعض مظـــاهر قدرته « فمنكم كافر ومنك ممؤمن » ويجىء هذا التقسيم مقترنا بالفاء ، وتختلف الآراء فى هذه الفاء ، فبعض يراها « للتفصيل مثلها فى قوله تعالى « والله خلق

---

(٢٩) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٤ ج ٦ •
(٣٠) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٥ ج ٦ •
(٣١) روح المعانى ص ١٠٥ ج ٢٨ •

كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع»(٣٢) فيكون الكفر والايمان فى ضمن الخلق، ...وجعل الطيبى الفاء للترتيب والفرض على سبيل الاستعارة كاللام فى قوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » (٣٣) .. ولم يجعلها للتفصيل .. ووافقه فى اختياره ذلك تلميذه المدقق صاحب الكشف .. والانصاف أن الآية تحتمل كلا من المعنيين ... والسياق يحتمل أن يحمل على ما يناسب كلا وليس نصافى أحد الأمرين » (٣٤) . وفى نظم الآية أيضا « قدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم »(٣٥) ولتقديمه أيضا علاقة بمعنى التغابن ، فان من كفر بربه قد جحد حقه ، وبخسه فى معاملته اياه ، واذا كان مقتضى نعمة الايجاد الايمان والشكران ، فلما سلك الكافر مسلكا يتناقض مع مقتضى الخلق ناسب أن يذكر أولا لتبدو بوضوح تلك الصورة العجيبة للجحود والنكران مجاورة لتفضله — سبحانه — بالخلق وما فيه من امتنان .

والتعبير عن الكفر والايمان بالاسم — دون الفعل — مراعى فيه العقبى والختام ، وما ينتهى اليه اختيار كل .. وذلك أمر مجلو ومكشوف لعلمه تعالى حيث يعلم ما كان وما سيكون ..ومن الواضح ان تلك الخاتمة لا تتغير ولا تتبدل ، ومن ثم كان التعبير بالاسمية فى « فمنكم كافر ومنكم مؤمن » وعلى أساس سعة علم الله الواسع الذى يشمل كل الأزمنة نستطيع أن نفهم ما يطالعنا من أخبار تنبىء عما يقدر للانسان وهو لما يكتمل خلقه مثل ما « أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردوية عن أبى ذر قا ل: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه

---

(٣٢) الآية ٤٥ من سورة النور .
(٣٣) الآية ٨ من سورة القصص .
(٣٤) روح المعانى ص ١٠٦ ج ٢٨ .
(٣٥) الكشاف ص ١١٣ ج ٤ وكذا : روح المعانى ص ١٠٥ ج ٢٨

وسلم ــ « اذا مكثت المنى فى الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به الى الرب ، فيقول يارب أذكر أم أنثى فيقضى الله ما هو قاض ، فيقول أشقى أم سعيد فيكتب ما هو لاق ، وقرأ أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات الى قوله تعالى (وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير) (٣٦) .. « فالسعادة والشقاوة مقدرتان فى الأزل لا يتغيران ولا يتبدلان ، والسعادة هى الموت على الايمان باعتبار تعلق علم الله أولا بذلك ، والشقاوة هى الموت على الكفر بذلك الاعتبار » (٣٧) .

وتختتم الآية الكريمة بما يفيد مجازاته تعالى لكل من الفريقين بما يناسب اختياره «والله بما تعملون بصير» وقد أظهر لفظ الجلالة فى موضع الاضمار تربية للمهابة فى النفوس ، وبعثا لمزيد الخشية والحذر منه ــ سبحانه ــ .

ويوالى النظم الجليل عرض مظاهر قدرته ــ سبحانه ــ فبعد امتنانه بخلق الانسان يمتن عليه بنعمة أخرى ــ هى فى مجال القدرة أعظم ، وفى استدعاء الايمان أقوى وألزم «خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير » .

أمور ثلاثة : خلق السموات والأرض لغاية ، وتكريم للانسان باحسان صورته ، وتذكير بحتمية المرجع اليه ــ سبحانه ــ ، والحق الذى ارتبط بخلق السموات والأرض يراد به ــ « الحكمة البالغة المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية ، قيل وأصل الحق مقابل الباطل فأريد به الغرض الصحيح الواقع على أتم الوجوه وهو الحكمة العظيمة » (٣٨) فهما ــ أى السموات والأرض ــ لحكمة تتمثل فى

---

(٣٦) روح المعانى ص ١٠٥ ج ٢٨ .
(٣٧) شرح البيجورى على جوهرة التوحيد ص ١٢٥ .
(٣٨) روح المعانى ص ١٠٦ ج ٢٨ .

كونهما اشتملتا على كل ما ينفع الانسان ويمكنه من استخلاف الله له فى الأرض ، وقد أقامهما الله ـ تعالى ـ على الحق .. ثم يقترن بخلقهما «وصوركم فأحسن صوركم» وهذا كقوله تعالى «لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم» (٣٩) وتجىء لفظة : «صوركم» جمعا مطابقة لحال المخاطبين فى : «صوركم» اذ الأمر ـ كما نعلم ـ أن مقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحادا ، وعلى هذا نرى الحسن شائعا فى كل صورة على حدة ـ على الرغم من كثرة الصور وتعددها ، «والانسان هو أكمل الأحياء فى الأرض من ناحية تكوينه الجثمانى ، كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعورى واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة ... ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل ، ولكن التصميم فى ذاته جميل وكامل الصنعة ، وواف بكل الوظائف والخصائص التى يتفوق بها الانسان فى الأرض على سائر الأحياء» (٤٠) .. «وقد ذكر بعض المحققين أن الانسان جامع بين العالم العلوى والسفلى وذلك لروحه التى هى من عالم المجردات ، وبدنه الذى هو من عالم الماديات وأنشدوا :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر» (٤١)

وقد يقال : كم من دميم مشوه الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون ، ونقول : لا سماجة ثم ، ولكن الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب ، فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطا بينا واضافتها الى الموفى عليها لا تستملح ، والا فهى داخلة فى حيز الحسن غير خارجة عن حده ، ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ، ثم ترى أملح وأعلى فى مراتب الحسن منها فينبو

---

(٣٩) الآية ٤ من سورة التين .

(٤٠) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٥ جـ ٦ .

(٤١) روح المعانى ص ١٠٦ جـ ٢٨ .

عن الأولى طرفك،وتستثقل النظر اليها بعد افتتانك بها ، وتهالكا عليها؟ وقالت الحكماء : شيئان لا غاية لهما : الجمال والبيـــان »(٤٢) ، وبعد هاتين النعمتين يذكر المرجع «واليه المصير» تذكيرا بأنه لا ملجأ من الله الا اليه ، ونســـج العبارة يفيد قصر المرجع الأخير عليه ـــ سبحانه ـــ وذلك فى النشأة الأخرى ، حيث قدم الخبر على المبتدأ الذى هو معرفة وفى هذا القصر تأكيد الدعوة الى احســـان العمل حفاظا على الجمـــال الذى منحنا اياه ـــ سبحانه ـــ كما قال المفسرون «فاصرفوا ماخلق لكم فيما خلق له ، لئلا يمســـخ ما يشـــاهد من حســـنكم بالعذاب » (٤٣) و « أحسنوا سرائركم حتى لا يمسخ بالعذاب ظواهركم » (٤٤) .

وفى انتظام خلق السموات والأرض ، واحسان صور الانسان ، واختصاصه ـــ سبحانه ـــ بحتمية المرجع اليه فى انتظام هـــذه الأمور الثلاثة نســـق رائع للجمـــال ، ذلك أن فيها امتنـــانا بالابداع فى خلق الكون والانسان ، ودعوة الى اســـتدامة الجمل فى الدنيـــا والآخرة بانسجام الانسان مع الكون حين يطيع ربه ، ويعمل المنهج الالهى فى عمـــارة الحيـــاة واســـتمرار نعمـــة الجمـــال فى الآخـــرة منوط بهـــذا التجـــاوب بين الانســـان وبين منهج ربه ، وهذا الاســـتمرار للجمال فى الآخرة دل عليه بقوله تعالى « واليه المصير » على أننى ـــ بعد ذلك ـــ ألمح الجمال مستبطنا فى « اليه المصير » فان مدلول هذا المرجع البعث « وأضافه تعالى الى نفسه لأنه هو النهاية فى خلقهم والمقصود منه»(٤٥) وفى البعث يكون العدل المطلق انذى تشرق به الأرض فيتحقق أسمى معانى الجمال ، هذا العدل ســـماه القرآن نورا فى قوله تعالى « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب »(٤٦) يؤيد ذلك تفســـير

---

(٤٢) الكشاف ص ١١٤ جـ ٤ .
(٤٣) روح المعانى ص ١٠٦ جـ ٢٨ .
(٤٤) تفسير البيضاوى ص ٦٩٨ .
(٤٥) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٢٢ جـ ٣٠ .
(٤٦) الآية ٦٩ من سورة الزمر .

الثقات من المفسرين للنور ــ فى هذا الموضع بالعدل ، ففى الكشاف(٤٧) (وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه من القسط والحساب ... وينادى عليه بأنه مستعار ، واضافته الى اسمه لأنه هو الحق والعدل ، وأضافة اسمه الى الأرض لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها قسطه ويحكم بالحق بين أهلها ، ولا ترى أزين للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه) وفى البيضاوى(٤٨) : « وأشرقت الأرض بنور ربها » • بما أقام فيها من العدل ، سماه نورا لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق ، كما سمى الظلم ظلمة وفى الحديث « الظلم ظلمات يوم القيامة » ، « وعن الحسن والسدى تفسيره (أى النور) بالعدل وهو من باب الاستعارة » (٤٩) •

وينتهى هذا المقطع بلمسة تكشف كل الحجب ، لترى ــ هى والكون كله ــ واضحة مكشوفة أمام العلم الالهى المحيط بكل شىء ، « المطلع على سر الانسان وعلانيته ، وعلى ما هو أخفى من السر من ذوات الصدور الملازمة للصدور » (٥٠) •

يعلم ما فى السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم بذات الصدور » فنراه تعالى قد « نبه بعلمه بما فى السموات والأرض ثم بعلمه بما يسر العباد وما يعلنونه ثم بعلمه بما أكنته الصدور على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شىء لا من الكليات ولا من الجزئيات ، فابتدأ بالعلم الشامل للعالم كله ، ثم بخاص العباد من

---

(٤٧) جـ ٣ ص ٤١٠ •

(٤٨) تفسيره ص ٦٠٧ •

(٤٩) روح المعانى للألوسى ص ٢٧ جـ ٢٤ •

(٥٠) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٦ جـ ٦ •

سرهم واعلانهم ، ثم ما خص منه وهو ما تنطوى عليه صدورهم من خفى الأشياء وكامنها »(٥١) .

والاحاطة هنا هى مدلول هذا الطبق فى الجمع بين السموات والأرض ، وبين : ما تسرون ، وما تعلنون ، وتأكيد المعنى الاحاطة وتناولها ما دق وخفى من الأمور جاء عطف « ويعلم ما تسرون وما تعلنون » على « يعلم ما فى السموات والأرض » عطف خاص على عام ترسيخا للايمان بامتداد علمه تعالى الى كل شىء . وفى هذا العطف أيضا تأكيد الوعيد للمنافقين الذين سبق ذكرهم قبل فى سورة « المنافقون» ومن صفاتهم التستر وراء الأيمان الكاذبة «اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله » (٥٢) وكذا كل من كان على شاكلتهم .

ويلحظ فى نظم العبارة عن احاطة العلم عدم تكرر ما مع الأرض بينما أعيدت ما مع الفعل تسرون فى مقابلة « ما تعلنون » ، وذلك لأن علمه — تعالى — بما فى السموات والأرض « نظم ما فيهما نظما واحدا على حد واحد ، فصار علمه بما فى الأرضين كعلمه بما فوقها ، وعلمه بما فى السموات كعلمه بما فى غيرها ، كما كان علمه بما يكون كعلمه بما كان لا يختلف فلم يتباين ، فتعاد للمخالفة لفظة « ما » للتمييز بها عما خالفها .. وأما « ما تسرون » فانه مخالف لما يعلنون غاية المخالفة فلم يصح الا باعادة ما »(٥٣) .

وأيضا لما كان المقصود بيان سعة العلم واحاطته فان تلك الغاية يناسبها انتظام السموات والأرض معانى الاخبار عن العلم بما فيهما ، وافراد كل من الاسرار والاعلان لاستقلال العلم بكل منهما على

---

(٥١) البحر المحيط ص ٢٧٧ جـ ٨ .
(٥٢) الآية ٢ من سورة المنافقون .
(٥٣) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الاسكافى ص٤٨٧ ، ٤٨٨

حدة ، وذلك أن تخفى المنافقين وسترهم للكفر مع حرصهم على توكيد اظهار الايمان ، كل ذلك منهم هو بمثابة الاعتقاد بعدم علم الله ــ تعالى ــ بهم حين ــ يتخفون فنبه بعدم تكرار ما مع الأرض على ضآلة هذين المخلوقين الكبيرين أمام العلم الواسع الشامل ، كما أفاد اعادة « ما » فى « ما تسرون وما تعلنون » انكشاف الخفايا للعلم انكشافا مستقلا ، وأن دقائق الأمور كعظائمها أمام احاطة العلم بها ٠

ويجىء التذييل « والله عليم بذات الصدور » مقررا لما قبله من شمول علمه تعالى لسرهم وعلنهم ٠٠ واظهار لفظ الجلالة للاشعار بعلة الحكم ، وتأكيد استقلال الجملة » (٥٤) ٠

والاخبار باحاطة العلم بكل تلك الأشياء هو « فى معنى الوعيد اذ هو تعالى المجازى جميع ذلك بالثواب والعقاب » (٥٥) ، ويلاحظ أيضا تكرير الفعل يعلم فى هذا الموضع « وتكريره فى معنى تكرير الوعيد»(٥٦)

ثم يجىء المقطع الثانى فى السورة يذكر بمصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات معترضين على بشرية الرسل ، كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويكفرون بما جاءهم من البينات ٠٠٠ ويتصل بهذا المقطع حكاية تكذيب الذين كفروا بالبعث ٠٠٠ وظاهر أن الذين كفروا هم المشركون الذين كان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يواجههم بالدعوة ، وهنا توجيه للرسول أن يؤكد لهم أمر البعث توكيدا وثيقا (٥٧) ، مبينا مايكون

---

(٥٤) روح المعانى ص ١٠٧ ج ٢٨ ٠

(٥٥) البحر المحيط ص ٧٧ ج ٢٨ ٠

(٥٦) الكشاف ص ١١٤ ج ٤ ٠

(٥٧) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٦ ، ٣٥٨٧ ج ٦ (بتصرف) ٠

فيه من جزاء يقوم على احاطة كل من هؤلاء المكذبين بالأسباب التى استحق بها ذلك الجزاء .

« ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (٥) ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد (٦) زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئون بما علمتم وذلك على الله يسير (٧) فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعلمون خبير (٨) .

يتضح هنا أن القرآن الكريم ينهج سبلا متنوعة للدعوة الى الايمان ، فقد بدأ السورة بما من شأنه أن يحمل عليه حيث عرض مشاهده الكونية ، وعلى الرغم من ذلك فان الانسان قد خالف الوحدة الايمانية التى عليها الكون اذ انقسم الى كافر مؤمن ، ثم ها هو ذا سبيل آخر من سبل الدعوة يواجه به القرآن الكفار مواجهة أخرى يدعوهم فيها الى الاعتبار بمصائر من كانوا مكذبين مثلهم : « ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا : أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد » .

الخطاب للكفرة لدلالة ما بعد على تخصيص الخطاب بهم ، وظاهر كلام بعض الأجلة أن المراد بهم أهل مكة (٥٨) ، والاستفهام فى « ألم يأتكم » قد يكون تقريريا ، فكأنهم « ذكروا بما حل من الكفار قبلهم عاد وثمود وقوم ابراهيم وغيرهم ممن صرح به فى سورة براءة وغيرها وقد سمعت قريش أخبارهم » (٥٩) .

---

(٥٨) روح المعانى ص ١٠٧ ج ٢٨ .

(٥٩) البحر المحيط ص ٢٧٧ ج ٨ .

« وقد يكون لانكار حالهم بعد ما جاءهم من نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم » (٦٠) ومع احتمال كونه انكاريا فان فيه معنى التعجب من حالهم ، ولا سيما أنهم كانوا يعرفون ويتناقلون أنباء بعض الهلكى من الغابرين ، كعاد وثمود وقرى لوط وهم يمرون عليها فى شبه الجزيرة فى رحلاتهم للشمال والجنوب •

لما كانت الغاية من تذكيرهم بمصير المكذبين لفت أنظارهم الى عاقبة الكفر فان العطف بالفاء هنا يسهم فى تحقيق هذه الغاية اذ الفاء هنا تضع أمامهم معنى المعاجلة بالعقوبة على الكفر مترتبا عليه ، وتاليا له •

والتوجه بالخطاب الى الكفار ، وتقديمه على خطاب المؤمنين الذى عنى به فى نهاية السورة ، يجىء متناسقا مع نظم السورة واحكام التناسب فيها ففى الآية الثانية منها نجد قوله تعالى (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) فقدم الكافر فى تقسيم الخلق الى هذين القسمين ، ثم كان التوجه بالخطاب الى الكفار أولا مراعاة لترتيب ذلك التقسيم السابق ••

ويجىء الحديث عن مصير المكذبين ممن سبقوا متضمنا نوعين من العذاب أحدهما فى الدنيا « فذاقوا وبال أمرهم » وثانيهما فى الآخرة « ولهم عذاب أليم »•

أما عذاب الدنيا فكان تدميرا لهم ولديارهم ، وهو هلاك شديد ، وعلى الرغم من ذلك يجىء التعبير عنه بالاذاقة « فذاقوا وبال أمرهم » وذلك — والله أعلم — اشارة الى أن ما حل بهم من عذاب فى الدنيا لا يكاد يذكر بالقياس الى ما ينتظرهم فى الآخرة ، « وأصل الوبال : الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الوبيل لطعام يثقل

---

(٦٠) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٦ ج ٦ •

على المعدة ، والوابل للمطر الثقيل القطار واستعمل للضرر لأنه يثقل على الانسان ثقلا معنويا » وعبر عن كفرهم بالأمر للايذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة » (٦١) واذن يكون الوبال استعارة لعاقبة الكفر من ضرر نزل بهم ، وفى هذه الاستعارة دلالة على ثقل العذاب الذى حل بهم ، والتعبير عن الكفر بالأمر جاء متناسبا مع الوبال فكلاهما ضخم وهائل • ويكون ذكر الاذاقة مما يزيد الاستعارة جمالا وروعة•

واكتسى هذا العذاب من صور التعبير صيغة لفعل ماض بين بها حدوثه ثم انتهاؤه أما عذاب الآخرة فهو دائم ثابت ، كما أنه عظيم ، ولهذا اكتسى صورة من صور الجملة الاسمية مع تنكير « عذاب » دلالة على أنه مهول ثم وصفه بأنه « أليم » أى لا يقادر قدره •

ويأتى — بعد ذلك — بيان الأسباب التى أنزلت بهم هذا العذاب « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا : أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد » ، فتكون تلك الأسباب وما عبر عنها مرتبطة بما قبلها أوثق ارتباط ، فيجىء التعبير على طريقة الفصل دون عطف ، وهو سلوك فى التعبير يسميه البلاغيون «الاستئناف» وهو لديهم ممتدح ، لما يتضمنه من اجابة عما يثيره الكلام الذى سبقه من تساؤلات ، ولما فيه أيضا من اعتناء بشأن السامع واغنائه عن أن يسأل ، هذا فضلا • عما فيه من أدق معنى للبلاغة ، لما فيه من ايجاز بتقدير السؤال ، وترك للعطف ، ولهذا كله قالوا : وتنزل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار ليه الا لجهات لطيفة » (٦٢) •

والاشارة فى « ذلك » الى « الويل الذى ذاقوه فى الدنيا ، والى ما أعدلهم من العذب فى الآخرة » (٦٣) وفى استعمال اسم الاشارة

---

(٦١) روح المعانى ص ١٠٧ ج ٢٨ •
(٦٢) لايضاح للخطيب القزوينى ص ٧٩ ج ٢ •
(٦٣) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٢٣ ج ٣٠ •

للبعيد ما يدل على عظم العذاب الذى حل بهم ، والذى ينتظرهم ، والباء فى « بأنه » للسببية ، والهاء الواقعة اسما لأن هى ضمير الشأن ، وفى ايثار ضمير الشأن دون ضمير أولئك الذين كفروا معنى ديمومة انكارهم للرسل ، وكفرهم بهم لكونهم بشرا مثلهم ، وأن ذلك الانكار والكفر كان شأنا لهم مع جميع الرسل ، ما تخلوا عنه مع واحد منهم .

والتعبير بالفعل « تأتيهم » فى الجملة الواقعة خبرا لكانت فيه أيضا معنى دوام التجدد للآيات التى جاء بها الرسل ، وأنه قد كثرت هذه الآيات وظاهر بعضها بعضا والتعبير عن الآيت بالبينات دل على وضوح ما كان فيها من اعجاز وخرق للعادة والعطف بالفاء فى الفعلين « فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا » « يدل على تعقب كفرهم مجىء الرسل بالبينات ، أى لم ينظروا فى تلك البينات ولا تأملوها ، بل عقبوا مجيئها بالكفر » (٦٤) والاستفهام فى « أبشر يهدوننا » للانكار ، وقد صرح القرآن فى مواطن أخرى بتكذيبهم للرسل وانكارهم لرسالاتهم لا لشىء الا لأنهم بشر ، ففى قصة نوح فى سورة « المؤمنون » «فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين »(٦٥) .

وفى انكار بشرية الرسل ما يدعو الى العجب ، حيث « أنكروا أن يكون الرسول بشرا ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجرا »(٦٦) .

عموا عما صاحب الرسالة من آيات ، ووقفوا عند بشرية الرسول متخذين منها سبيلا الى انكار الهدى على يدى واحد من البشر .. «من هذه الزاوية الضيقة الصغيرة نظر القوم الى الدعوة الكبيرة ، فما كانوا

---

(٦٤) البحر المحيط ص ٢٧٧ ج ٨ .

(٦٥) الآية ٢٤ من سورة المؤمنون .

(٦٦) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٢٣ ج ٣٠ .

ـــ اذا ـــ ليدركوا طبيعتها ، ولا ليروا حقيقتها ، وذواتهم الصغيرة الضئيلة تحجب عنهم جوهرها ، وتعمى عليهم عنصرها وتقف حائلا بين قلوبهم وبينها ، فاذا القضية كلها فى نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق عنهم فى شىء .. وهم فى اندفاعهم هذا .. يردون فضل الانسانية التى هم منها ، ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس ، ويستكثرون أن يرسل الله رسولا من البشر ، ان يكن ـــ لا بد ـــ مرسلا ، .. ذلك أنهم لا يجدون فى أرواحهم تلك النفحة العلوية التى تصل البشر بالملأ الأعلى ، وتجعل المختارين من البشرية يتلقون ذلك الفيض العلوى ويطيقونه ، ويحملونه الى اخوانهم من البشر ، فيهدونهم الى مصدره الوضىء » (٦٧) وارتفع بشر ـــ عند الحوفى وابن عطية على الابتداء ، والخبر يهدوننا ، والأحسن أن يكون مرفوعا على الفاعلية لأن همزة الاستفهام تطلب الفعل فالمسألة من باب الاشتغال » (٦٨) . وعطف « تولوا » على « كفروا » هو من عطف الخاص على العام ، وفى هذا العطف تأكيد لكفرهم ، وأنهم جمعوا فيه بين القول والفعل ، والتولى عنى به اعراضهم عن الرسل بالكلية ، واستعماله بهذا المعنى استعارة ، ذلك « أن أصل التولى فى اللغة انما هو بالوجه ثم استعمل مجازا فى الاعراض عن الشىء » (٦٩) ، وتكون هذه الاستعارة تصويرا بالغا لما هم عليه من مجافاة للحق الذى جاءهم به الرسل .

(واستغنى الله) أطلق ليتناول كل شىء ، ومن جملته ايمانهم وطاعتهم ، وليس معنى عطف الفعل (استغنى الله) على (تولوا) وجود التولى والاستغناء معا فان الله تعالى لم يزل غنيا ، وانما معناه وظهر استغناء الله (٧٠) .

---

(٦٧) فى ظلال القرآن لسيد قطب ص ٢٤٦٤ جـ ٤ .

(٦٨) البحر المحيط ص٢٧٧ جـ٨ ، وكذا : روح المعانى ص١٠٧جـ٢٨

(٦٩) عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى ص ٩٥ جـ ١ .

(٧٠) تفسير الكشاف ص ١١٤ جـ٤ (بشىء من التصرف) .

ويجيء التذييل مؤكدا أنه ــ سبحانه ــ غنى عن ايمانهم وطاعتهم، وأنه مستحق للحمد بذاته ، مع بنـــاء التذييل على لفظ الجلالة « والله غنى حميد » اشعارا بعلية الحكم ، واستقلال التذييل ، وجملة التذييل اسمية تناسبا مع ثبوت صفاته تعالى وقدمها .

و « هو ــ سبحانه ــ واجب الوجود لذاته ، وفى صفاته ، فكان غنيا عن كل ما سواه ، أما كل ما سواه فممكن لذاته فوجوده بايجاده ، فكان هو الغنى لا غير » (٧١) .

وحميد « فعيل اما بمعنى فاعل ، فانه تعـــالى حامد لم يزل بثنائه على نفسه ، وهو قوله « الحمد لله رب العالمين » (٧٢) وبثنائه على المؤمنين الذين سيوجدون . واما بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول ، أى محمود بحمده لنفســـه ، وبحمد عباده له ، ومنه قوله : « ونحن نسبح بحمدك » (٧٣) ومنهم من قال : الحميد معناه المســـتحق للحمد والثناء » (٧٤) .

ثم تعرض الســـورة زعما من مزاعم الذين كفروا ولا تدعه حتى تنقضه وتهدمه من أساسه :

« زعم الذين كفـــروا أن لن يبعثـــوا ، قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير » .

« وظاهر أن الذين كفروا هم المشركون الذين كان الرســـول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يواجههم بالدعوة ، ... ومنذ البداية يســـمى

---

(٧١) لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات للرازى ص٣٤٤

(٧٢) الآية ١ من سورة الفاتحة .

(٧٣) جزء الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٧٤) لوامع البينات للرازى ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعما ، فيقضى بكذبه من أول لفظ فى حكايته » (٧٥) ، ذلك أن « الزعم ادعاء العلم ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « زعموا مطية الكذب » وعن شريح : لكل شىء كنية ، وكنية الكذب زعموا ، ويتعدى الى المفعولين تعدى العلم •• وان مع ما فى حيزه قائم مقامهما » (٧٦) •

ثم يتوجه الخطاب الى الرسول — صلى الله عليه وسلم أن يؤكد لهم حتمية البعث تحقيقا للجزاء العدل ، مبين التسليم بسهولته ممن آمن بأن الله تعالى هو الذى خلق الانسان « قل : بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير » بلى اثبات لما بعد (٧٧) لن ، ففى هذا الحرف وحده رد لزعمهم ، واثبات للبعث ، لكن اعجاز القرآن الكريم منح القضية من الاهتمام ما يلائم ما تلقاه من انكار ، فأكدها بالقسم ، ثم « انه أكد الجواب أيضا باللام والنون ، فكأنه قسم بعد قسم » (٧٨) أما القسم فهو ما أمر أن يقوله — صلى الله عليه وسلم « قل : بلى وربى » وأما جوابه فهو « لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم » • وعلى الرغم من انكارهم لرسالته — عليه الصلاة والسلام الا أن القرآن يجعل من قسمه وسيلة الى تصديقهم ، ذلك « أنهم — وان أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون أنه يعتقد ربه اعتقادا لا مزيد عليه فيعلمون أنه لا يقدم على القسم بربه الا وأن يكون صدق هذا الاخبار أظهر من الشمس عنده وفى اعتقاده » (٧٩) •

والتناسب بين القسم وجوابه واضح جلى ، ذلك أن لفظ الرب

---

(٧٥) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٧ جـ ٦ •

(٧٦) الكشاف ص ١١٤ جـ ٤

(٧٧) الكشاف ص ١١٤ جـ ٤ •

(٧٨) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٢٤ جـ ٣٠ •

(٧٩) السابق نفسه ص ٢٤ جـ ٣٠ •

دلالته الحنو والرحمة ، وفى البعث أيضا رحمة ، اذ به تصلح الحياة ويستقيم أمرها ، والايمان به « يربط الدنيا بالآخرة ، والعمل بالجزاء ، و .. يشعر الانسان بأنه ليس لقى مهملا ، وأنه لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى ، وأن العدالة المطلقة فى انتظاره ، ليطمئن قلبه ، وتستقر بلا بله ، ويفىء الى العمل الصالح والى عدل الله ورحمته فى نهاية المطاف »(٨٠) ففى القسم — اذن — معنى الرحمة ، وفى الجواب أيضا ذلك المعنى ، فكان التناسب بين القسم وجوابه أتم ما يكون ، وبعد البعث يكون الجزاء الذى عبر عنه بالفعل « لتنبؤن » معطوفا بالحرف « ثم » .

وثم هنا ليس معناها التراخى فى الوقت ولكن فى الحال مثلها فى قول الله تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٨١) والتراخى فى الحال معناه بعد التفاوت فى المرتبة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وعلى ذلك يكون العطف بثم دالا على عظم التفاوت فى المرتبة بين البعث والانباء بالعمل ، لأن الانباء هو الغاية من البعث واذن يكون معنى « لتنبؤن بما عملتم » لتحاسبن وتجزون بأعمالكم ، وزيد ذلك لبيان تحقق أمر آخر متفرع على البعث منوط به ، ففيه أيضا تأكيد له » (٨٢)

وفى الجملة « لتنبؤن بما عملتم » مجاز مرسل علاقته اللزومية ، حيث استعمل الانباء فى الجزاء الذى هو لازم الانباء ، وفى ايثار التعبير بـ « لتنبؤن » فى معنى « لتحاسبن وتجزون » سر بلاغى يتمثل فى قيام الجزاء على العدل المطلق ، وأن أحدا لا يصل الى جزائه الا بعد

---

(٨٠) فى ظلال القرآن ص ٤١ ج ١ .

(٨١) الآية : ٢ من سورة هود ، وانظر الكشاف فى تفسيره للآية من سورة هود ص ٢٥٨ ج ٢ .

(٨٢) روح المعانى ص ١٠٨ ج ٢٨ .

وقوفه على كل أسباب هذا الجزاء وفى الاخبـــار بيسر البعث على الله تعالى مراعاة لحال المخاطبين الذين يرون من الأمور ما هو سهل وما هو صعب ، أما بالنسبة لله تعالى فـــ « انما أمره اذا اراد شيئا أن يقول له كن فيكون » (٨٣) ، وصيغ هذا المعنى فى قالب من أساليب القصر « وذلك على الله يسير » حيث قدم الجار والمجرور على الخبر تأكيدا لاختصاص الله تعالى بالقدرة على البعث فى سهولة ويسر ، وأن ذلك ليس لأحد سواه والاشارة فى « وذلك على الله يسير » تتناول كل ما يتعلق بالبعث من اعادة الى الحياة وانباء بالعمل وجزاء عليه ، اذ هو ـــ سبحانه ـــ « يعلم ما فى السموات والأرض ، ويعلم السر والعلن ، وهو عليم بذات الصدور وهو على كل شىء قدير ، كما جاء فى مطلع السورة تمهيدا لهذا التقرير . وفى ظل هذا التوكيد الوثيق يدعوهم الى الايمان بالله ورسوله ، والنور الذى أنزله مع رسوله ، وهو هذا القرآن ، وهو هذا الدين الذى يبشر به القرآن ، وهو نور فى حقيقته بما أنه من عند الله ، والله نور السموات والأرض ، وهو نور فى آثاره اذ ينير القلب فيشرق بذاته ويبصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته .

ويعقب على دعوتهم الى الايمان بما يشعرهم أنهم مكشوفون لله لا يخفى عليه منهم شىء » (٨٤) .. هكذا جاءت الدعوة الى الايمان مصحوبة بما يحمل على الاستجابة لها من الاخبار بانكشاف كل أمر لعلمه تعالى « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير » وتمثل الفاء رباطا وثيقا لهذا الأمر بما سبقه من تأكيد للبعث وما يكون فيه ، وهى التى تعرف باسم « فاء الفصيحة » لافصاحها عن شرط مقدر يفهم من الكلام السابق . والأمر بالايمان يتناول : الايمان بالله وبرسوله محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وفى الايمان به ايمان بكل رسل الله ،

---

(٨٣) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٨٤) فى ظلال القرآن نص ٣٥٨٧ جـ ٦ .

ويتناول الأمر بالايمان أيضا : الايمان بالنور الذى أنزله الله ، « وعنى به القرآن (٨٥) ومن الواضح أن فى استعمال النور للقرآن استعارة اصلية ، ولهذه الاستعارة دلالاتها البالغة فيما للقرآن الكريم من أثر مشرق وضاء فى النفوس وفى القلوب ، وفى الحياة بعامة حين يكون هو المحكم فى ذلك كله ، وفى ارتباط النور وتعلقه بالفعل « آمنوا » دعوة الى الثقة فى القرآن والتصديق الجازم بآثاره القوية فى الهداية ، وللصياغة على هذا النحو صلة وثيقة بمعنى التغابن الذى يكون فى يوم القيامة انها تبرز منهج الفوز فى هذا السباق ماثلا فى تلك العقيدة الراسخة فى الله وفى الايمان برسوله ، والثقة المطلقة فى النور الذى يهدى اليه كتابه . وفى ذكر الرسول معرفا بالاضافة الى ضمير عائد على لفظ الجلالة ما يؤكد الايمان به لأنه رسوله الذى جاء بالهدى من عنده ، لا من عند نفسه ، كما أن فى تعريف النور بأل ما يشعر بالكمال لمعنى النور فى القرآن الكريم ، وفى وصفه بكونه منزلا من عند الله تشريف له ، وتأكيد لمعنى الكمال فيه ، وفى الكلام التفات حيث حول التعبير من الغيبة الى التكلم فى الفعل « أنزلنا » مع اسناد الانزال الى نون العظمة « لابراز العناية بأمر الانزال وفى ذلك من تعظيم شأن القرآن ما فيه ، (والله بما تعملون) من الامتثال بالأمر وتركه (خبير) عالم ببواطنه ، والمراد كمال علمه تعالى بذلك » (٨٦) • ونصل بعد هذا الى المقطع الثالث من السورة حيث يعود السياق مرة آخرى الى مشهد البعث الحافل الجامع حيث يجمع الله تعالى الخلائق كلها ، مبينا ما يكون بعد الجمع من فوز فريق ، وخسارة آخر ، ويصور ذلك بأنه « التغابن » ، ثم يربط بالايمان الهيمنة المطلقة لله تعالى على هذا الكون ، فلا شىء يحدث الا بعلمه وارادته ، ولا يكون كائن ما الا باذنه •

---

(٨٥) ينظر : الكشاف ص ١١٥ ج ٤ •

(٨٦) روح المعانى ص ١٠٨ ج ٢٨ •

ومن شأن ذلك الايمان تسكين النفوس ، وطمأنة القلوب ، ويقرن بذلك دعوة الى طاعة الله — عز وجل — وطاعة رسوله — صلى الله عليه وسلم — مؤكدا أن دوره — صلى الله عليه وسلم — مقصور على تبليغ الدعوة ، ويجىء التوحيد فاصلا بين هذين الفريقين المختلفين : المؤمنين والكافرين ، داعيا المؤمنين الى توكلهم على الله — تعالى — وحده :

« يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم (٩) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير (١٠) ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم (١١) وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين (١٢) الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٣) » .

يبدو — بوضوح — ارتباط هذه الآيات بما سبقها من آيات أخرى أكدت أمر البعث (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل : بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) . ويقوى أمر الارتباط أن كلمة «يوم » الواقعة ظرفا فى قوله تعالى « يوم يجمعكم » . العامل فيها الفعل « لتنبؤن » على الأرجح (٨٧) ، واذن يكون الانباء المقصود به المجازاة على الأعمال واقعا فى هذا اليوم ويبقى حديث البعث موصولة أحداثه ، مرتبطة معانيه وما وقع بين آيات البعث من قوله تعالى « وذلك على الله يسير » وقوله — سبحانه « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير » هو من الاعتراض ، وله أيضا سره البلاغى فى موضعه ، فالأول (٨٨) يحقق القدرة على البعث ، والثانى (٨٩) يؤكد

---

(٨٧) ينظر : روح المعانى ص ١٠٨ ج ٢٨ .

(٨٨) الأول هو قوله تعالى « وذلك على الله يسير » .

(٨٩) الثانى هو قوله تعالى « فآمنوا بالله ورسوله .. الآية » .

ما سبق له الكلام من الحث على الايمان به وبما تضمنه من الكتاب ، وبمن جاء به ، وفى الحقيقة هو (٩٠) نتيجة قوله تعالى « لتبعثن ثم لتنبؤن » قدم على معموله (٩١) للاهتمام فجرى مجرى الاعتراض ، وقوله — سبحانه — « والله بما تعملون خبير » اعتراض فى اعتراض لأنه من تتمة الحث على الايمان » (٩٢) .

ويبقى الارباط واضحا كذلك على ما قاله الزجاج من أن الظرف انتصب بقوله تعالى « لتبعثن » (٩٣) .

وقيل أيضا ان الظرف انتصب « بخبير » لما فيه من معنى الوعيد ، كأنه قيل والله معاقبكم يوم يجمعكم ، أو باضمار اذكر (٩٤) ، غير أن كلا من هذين الرأيين لا تبدو وحدة الآيات معه قوية كما هى مع كون العامل « لتنبؤن » أو « لتبعثن » ولذا فانهما غير مسلمين من بعض المفسرين الثقات ، فقد تعقب الرأى الأول منهما بأنه يرد عليه أن « خبير » ليس لمجرد الوعد والوعيد ، بل للحث ، كيف لا والوعيد قد تم بقوله تعالى : « لتنبؤن بما عملتم » فلم يحسن جعله بمعنى معاقبكم ، وأما الرأى الآخر الذى يجعل العامل « اذكر » مقدرا فقد تعقب بأنه

---

(٩٠) أى الاعتراض .

(٩١) المعمول هو الظرف « يوم » والمعنى أن الاعتراض قدم على الظرف الذى هو معمول للفعل لتنبؤن للاهتمام .

(٩٢) روح المعانى ص ١٠٨ جـ ٢٨ .

(٩٣) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٢٥ جـ ٣٠ .

(٩٤) الكشاف ص ١١٥ جـ ٤ ٣، والتفسير الكبير للرازى ص ٢٥ جـ ٣٠ ، والبحر المحيط لأبى حيان ص ٢٧٨ جـ ٨ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ١٣٦ جـ ١٨ .

ـ وان كان حسنا ـ الا أنه لا قرينة ظاهرة عليه » (٩٥) .

(ليوم الجمع) اللام الجارة هنا للتعليل ، ويكون المعنى : يوم يجمعكم لاجل ما فى يوم الجمع من الحساب ، فيكون فى الكلام مضاف مقدر . وقيل اللام بمعنى « فى » فلا تقدير (٩٦) والى كون اللام تعليلية أجنحى أميل ، لأن اعتبارها كذلك يوضح الغاية من هذا الجمع ، تلك الغاية التى تتمثل فى الحساب والجزاء ، وتسمية يوم القيامة بيوم الجمع لما فيه من معان متعددة للجمع ، حيث : يجمع الله الاولين والآخرين ، والانس والجن ، وأهل السماء وأهل الأرض . ويجمع الله بين كل عبد وعمله ، ويجمع فيه بين الظالم والمظلوم ، ويجمع فيه بين كل نبى وأمته ، ويجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصى (٩٧) ، وقد ذكر كل واحد من هذه الأسباب على انه السبب فى أن يوم القيامة يوم الجمع ، فتكون تلك الأسباب آراء تعددت فى سبب التسمية ولا أمنع أن تكون كلها سببا لهذه التسمية ، ذلك أن التعبير القرآنى أطلق الجمع مع التعبير بالفعل « يجمع » فى مخاطبة المكلفين « يوم يجمعكم ليوم الجمع » وذلك يرجح أن ثمة أسبابا متعددة لهذا الجمع ، ويقوى ذلك قوله تعالى : « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » (٩٨) وكذا قوله مخبرا عن اجتماع الرسل فى ذلك اليوم « يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أجبتم » (٩٩) ، وقوله مخبرا عن جمع كل جماعة مع كتابها ، وكل أمة مع نبيها « يوم ندعو كل أناس بامامهم »(١٠٠) ، وقوله مخبرا عن اجتماع الملائكة أيضا فى ذلك اليوم

---

(٩٥) روح المعانى ص ١٠٨ جـ ٢٨ .

(٩٦) ينظر : روح المعانى ص ١٠٨ جـ ٢٨ .

(٩٧) تفسير القرطبى ص ١٣٦ جـ ١٨ .

(٩٨) الآية ١٠٣ من سورة هود .

(٩٩) الآية ١٠٩ من سورة المائدة .

(١٠٠) الآية ٧١ من سورة الاسراء .

« يوم يقوم الروح والملائكة صفا » (١٠١) ، فهو يوم الجمع لكل هذه الأسباب ، واطلاق الجمع يحتمل اجتماع كل تلك الأسباب ، ولا ينافيه شيء منها .

(ذلك يوم التغابن) : سبق أن أشرنا الى معنى التغابن فى مطلع هذا البحث ، وقلنا ان المادة الأصلية لهذه الكلمة هى الغين ، الباء ، والنون ، وأنها تدل على ضعف واهتضام ، وبخس ونقصان ، والصيغة التى عبر بها القرآن الكريم صيغة تفاعل ، ثم هى معرفة بأل . وتوضيحا لمعنى التغابن الذى يكون فى يوم القيامة يجب أن نعلم أن التعبير بالتغابن هو على سبيل التمثيل والتصوير ، وأن ما يحدث فى يوم القيامة من نزول أهل الجنة منازل أهل النار التى كانت لهم فى الجنة ، ونزول أهل النار منازل أهل الجنة التى كانت لهم فى النار صوره القرآن بصورة ما يحدث من غبن بين المتبايعين ، فهو — اذن — مستعار من تغابن القوم فى التجارة (١٠٢) ، والعمل وما أعد فى مقابله من جزاء ، يصوره القرآن الكريم دائما بما يكون من ربح وخسر فى البيع والشراء ، « وقد ذكر تعالى فى حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، واشتروا الضلالة بالهدى ، ثم ذكر أنهم ما ربحت تجارتهم ، ودل المؤمنين على تجارة رابحة ، فقال : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وانفسكم » (١٠٣) وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة فخسرت صفقة الكفار ، وربحت صفقة المؤمنين »(١٠٤) ، فالتغابن — على ذلك — « نوع مبادلة اتساعا ومجازا ، وقد فرق الله تعالى الخلق فريقين : فريقا للجنة وفريقا للنار ،

---

(١٠١) الآية ٣٨ من سورة النبأ .

(١٠٢) الكشاف ص ١١٥ ج ٤ .

(١٠٣) الآية ١٠ ، ١١ من سورة الصف .

(١٠٤) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٢٥ ص ٣٠ .

ومنازل الكل موضوعة فى الجنة والنار فقد يسبق المخذلان على العبد .. فيكون من أهل النار فيحصل الموفق على منزل المخذول ، ومنزل الموفق فى النار للمخذول ، فكأنه وقع التبادل فحصل التغابن ، والأمثال موضوعة للبيان فى حكم اللغة والقرآن ... وقد يخبر عن هذا التبادل بالوراثة » (١٠٥) كما جاء فى سورة « المؤمنون » فى قوله تعالى : «أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » (١٠٦) .

وبهذا التفسير للتغابن يكون التفاعل على ظاهره حيث هو تعبير عن تبادل الأماكن بين أهل الجنة وأهل النار ، ونزول كل فريق منازل الفريق الآخر ، وقد جاء فى الصحيح « ما من عبد يدخل الجنة الا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار الا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة » ، وحينئذ فمعنى التغابن واضح بالنسبة ان يدخلون الجنة ، أما الأشقياء ، فأى غبن حدث منهم للسعداء؟ ولذا كان فى التغابن بالنسبة لهؤلاء نوع تهكم لأنهم فى الحقيقة لا يغبنون السعداء بنزولهم فى منازلهم من النار » .

ولا مانع من كون التفاعل ليس ظاهره ، فيكون التغابن بمعنى الغبن كما فى التواضع والتحامل اوقوعه من جانب واحد ، واختيرت صيغة التفاعل للمبالغة ، وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنهم قالوا : يوم غبن فيه أهل الجنة أهل النار »(١٠٧) . فهو على هذا غبن من جانب واحد هو : أهل الجنة .

والذى أميل اليه أن التغابن معنى يتناول الناس كلهم يوم القيامة : مؤمنهم وكافرهم ، طائعهم وعاصيهم ، حيث ان كل انسان سوف يشعر بالتقصير والنقص ويؤيد ذلك أن من معانى الغبن : النقص ، يقال : غبنت

---

(١٠٥) تفسير القرطبى ص ١٣٧ جـ ١٨ .

(١٠٦) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة « المؤمنون » .

(١٠٧) ينظر : روح المعانى ص ١٠٩ جـ ٢٨ .

الثوب وخبثته اذا طال عن مقدارك فحطت منه شيئا ، فهو نقصان أيضا .. قال المفسرون : فالمغبون من غبن أهله ومنازله فى الجنـــة ، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الايمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره فى الاحسان وتضييعه الأيام . قال الزجاج : ويغبن من ارتفعت منزلته فى الجنة من كان دون منزلته ... وقد قال بعض علماء الصوفية : ان الله كتب الغبن على الخلق أجمعين ، فلا يلقى أحد ربه الا مغبونـــا ، لأنه لا يمكنـــه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب . وفى الأثر قال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : لا يلقى الله أحد الا نـــادما : ان كـــان من مسيئا أن لم يحسن ، وان كن محسنا أن لم يزدد » (١٠٨) .

ومما يعضد عموم معنى التغابن وأنه يتناول الناس جميعا ماجاء فى السنة المطهرة فى صحيح البخارى : أخبرنا المكى بن ابراهيم أخبرنا عبدالله بن سعيد هو ابن أبى هند عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم ــ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » (١٠٩) والغبن هنا أيضا مستعار للخسارة والنقصان فى الاجزاء لمن ضيع هاتين النعمتين فلم يحسن الانتفـــاع بهما ، ولذا « قال الطيبى : ضرب النبى ــ صـــلى الله عليه وســـلم ــ للمكلف مثلا بالتاجر الذى له رأس مال ، فهو يبتغى الربح مع سلامة رأس المـــال فطريقه فى ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ، ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن ، فالصحة والفراغ رأس المـــال ، وينبغى له أن يعامل الله بالايمان ومجاهدة النفس ، وعدو الدين ليربح خيرى الدنيا والآخرة ، .. وعليه أن يتجنب مطاوعة النفس ، ومعاملة الشيطان لئلا يضيع رأس مـــاله مع الربح » (١١٠) .

---

(١٠٨) تفسير القرطبى ص ١٣٧ ، ١٣٨ جـ ١٨ .

(١٠٩ ، ١١٠) فتح البـــارى لابن حجر ص ١٩١ ، ١٩٢ جـ ١١ ط بيروت .

ولما بين هذا اليوم وسائر الأيام من تباين وتباعد كانت الاشارة اليه باسم اشارة للبعيد (ذلك) • « وتعريف التغابن بأل التى للجنس ، وفيه دلالة على استعظام ذلك اليوم ، وأن تغابنه هو التغابن فى الحقيقة لا التغابن فى أمور الدنيا وان جلت وعظمت » (١١١) ، وكان تغابنه هو التغابن الحقيقى ، « لأنه التغابن الذى لا يستدرك أبدا ، لأن تغابن الدنيا يستدرك بوجهين : اما برد فى بعض الأحوال ، واما بربح فى بيع آخر وسلعة أخرى ، أما من خسر الجنة فلا درك له أبدا » (١١٢) •

ثم يجىء التوضيح والتفسير لما يكون من التغابن يوم القيامة :

« ••• ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم • والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير » •

صورتان متقابلتان فى السلوك وفى الجزاء ، أولاهما ايمان وعمل صالح ، وجزاء أصحابها تكفير للسيئات ، ودخول جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، وأخراهما : كفر وتكذيب بآيات الله تعالى والجزاء فيها صحبة النار والخلود فيها وفى الصورتين فريق رابح ، وآخر خاسر ، وذلك البيان لمعنى التغابن ، ولننظر فى القالب التعبيرى الذى اكتساه كل فريق ، فى جانب المؤمنين الفائزين جاء التعبير فى أسلوب شرطى أداته « من » وفعل الشرط : يؤمن بالله ويعمل صالحا والجزاء : يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا » وفى جانب الذين خسروا فى هذا السباق جاء الأسلوب على طريق الاخبار واستعمل فيه الفعل الماضى صلة للموصول ، والجملة الاسمية فى الخبر

---

(١١١) روح المعانى ص ١٠٩ جـ ٢٨ •

(١١٢) تفسير القرطبى ص ١٣٨ جـ ١٨ •

أما التعبير « فى الايمان « ومن يؤمن بالله » بلفظ المستقبل ، وفى الكفر « والذين كفروا » بلفظ الماضى فنقول : تقدير الكلام : ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ، ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار » (١١٣) .

ونضيف الى ذلك أيضا أن ذكر هذين الفريقين يجىء بعد تقرير أن يوم القيامة يوم التغابن الذى هو تصوير استعارى لفوز فريق وخسران فريق آخر ، وسبق ذلك أيضا عرض لمزاعم الكفار من انكارهم للبعث وتكذيبهم للرسل ، فناسب هذا كله أن تجىء الدعوة الى انتهاج سبيل الفوز فى أسلوب شرطى ، لما فى أسلوب الشرط من حفز بوضع الجزاء مترتبا على الشرط ، ولما هو معلوم أيضا من أن « الشرط والجزاء لا يتعلقان الا بالمستقبل ، حتى ان ما هو ماض منهما يكون مستقبل المعنى » (١١٤) ، والصياغة على ها النحو : فى أسلوب شرط شرطه وجزاؤه مضارعان أنسب ما يكون بدعوة الى فوز فى مضمار سباق اذ من شأن هذه الدعوة أنها باقية ومستمرة الى يوم القيامة وأنها تخاطب كل جيل فى حاضره ليحرص على الايمان فى ذلك الحاضر وما يتلوه من مستقبل أما الفريق الآخر الخاسر فلا جديد فى أمره ، انه باق على كفره فجاء الحديث عنه — فى هذا السياق — فى صيغة الاخبار .

ومما يلاحظ أيضا أن التعبير فى جانب الايمان والفوز جاء فيه « ومن يؤمن » بلفظ الواحد ، و « خالدين فيها » بلفظ الجمع ، فالافراد نظر فيه الى لفظ من والجمع روعى فيه معناه (١١٥) .

---

(١١٣) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٢٥ جـ ٣٠ .

(١١٤) ينظر : بدائع الفوائد لابن القيم ص ٥١ جـ ١ .

(١١٥) ينظر : مفاتيح الغيب للرازى ص ٢٥ جـ ٣٠ وروح المعانى للألوسى ص ١٠٩ جـ ٢٨ .

وبالنظر أيضا فى تلك الآية التى بشرت المؤمنين بالفوز نرى الجزاء فيها مخونا من أمرين : « يكفر عنه سيئاته ويدخله جنـــات تجرى من تحتها الأنهار » بينما فى سورة الطلاق جاء تبشير المؤمنين بالفوز بدخول الجنات ولم يعرض لتكفير السيئات حيث يقول تعالى : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيهـــا أبدا قد أحسن الله له رزقا » (١١٦) فلم خصصت الآية الأولى بقوله « يكفر عنه سيئاته » وخلت الآية الثانية منها ؟

السر فى ذلك : « أن الأولى جـــاءت بعد قوله تعالى ــ مخبرا عن الكفار ــ « فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميـــد • زعم الذين كفرا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير » فهذه سيئات تحتاج الى تكفير اذا آمن بالله بعدها فقال:«ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا» فى مستقبل عمره يمسح عنه ما سبق من كفره ثم يوجب له جنات •

والآية الثانية لم يتقدمها خبر عن كفار بسيئات فيوعدوا بتكفيرها اذا أقلعوا عنها وتابوا منها ، وكان مضمونا تكفير السيئات عند الايمان وعمل الصالحات ، فلم يحتج الى ذكره ، كما كان الأمر فى غيره » (١١٧)•

وجاءت أفعال الجزاء « يكفر عنه سيئاته ، ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار » مسندة الى الله تعالى اذ هو ــ سبحانه ــ المتفضـــل بقبول الأعمال ، والمتفضل أيضا بالجزاء عليها ، وتوصف الجنات بأنها « تجرى من تحتها الأنهار » وليس ثمة جمال يفوق جنات الفافا ، تجوب الأنهار أرضها وتجرى من تحت أشجارها مع ما فى اسناد الجرى الى

---

(١١٦) الآية ١١ من سورة الطلاق •

(١١٧) درة التنزيل وغرة التويل للاســـكافى ص ٤٨٨ ، وكذا : البرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى ص ٢٠٥ •

الأنهار من مجاز عقلى أسند فيه الفعل الى مكانه دلالة على كثرة الحركة التى تكون لمياه تلك الأنهار .

ومما يضاعف المتعة بهذا النعيم الاطمئنان الى الخلود فيه ، وعدم مفارقته فجاء قوله تعالى « خالدين فيها أبدا » حالا مقدرة اعظاما للمنة .

وليس بعد ذلك من فوز : ولذا كان طبيعيا أن يجىء ختام ذلك الجزاء ما يؤكد أنه الفوز الحقيقى ، « ذلك الفوز العظيم » وأسهم فى تأكيد هذا المعنى : أسلوب القصر المستفاد من تعريف الطرفين (ذلك الفوز) مع استعمال اسم الاشارة الذى هو للبعيد دلالة على بعد منزلة هذا الجزاء ، ووصف الفوز بالعظيم ، ليضاف الى الأسلوب تأكيد آخر لامتداح الجزاء .

أما الفريق الخاسر ، وقد سبق عرض جرمه قبل ، حيث أنكروا بشرية الرسل وأن يكونوا هداة ، وزعموا أن لا بعث ولا حساب ، فانهم فى سياق ذكر الجزاء تعرض أيضا جرائمهم التى تخلوا عنها ، ولا فكروا فى خلاص منها « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا » والآيات هى القرآن الكريم (١١٨) ، وتكذيبهم به يطوى فى ثناياه نكران كل آيات أخرى لله تعالى فى كونه ، وكذا كل خارقة مادية على يد رسوله ، اذ هو الآية التى هى وحى يتلى ، وتضمنت التاريخ الانسانى كله منذ آدم الى محمد — صلى الله عليه وسلم — كما أنها المنهج الذى جاء به صاحب الرسالة — صلى الله عليه وسلم — فالتكذيب به هو غاية ما ينتهى اليه جحود البشر ، وبعد عرض جرائمهم — فى ايجاز — يجىء جزاؤهم الذى هو الجزاء الموفاق « أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير » وذكر اسم الاشارة فى جملة الخبر فيه اعادة ضمنية لصفاتهم التى استحقوا بها ذلك الجزاء ومعناه — اذن — المتصفون بما تقدم من صفات والاخبار

---

(١١٨) تفسير القرطبى ص ١٣٩ جـ ١٨ .

عنهم بأنهم أصحاب النار يدل على ملازمتهم الدائمة لها ، وملازمتها أيضا لهم، ويتضاعف معنى العذاب وما يصحبه من آلام بذكر الخلود فيها **خالدين فيها وبئس المصير » أى النار ، فالمخصوص بالذم محذوف ،** وتقديره « النار » ، وجملة « وبئس المصير » تعد توكيد لمعنى الخلود فى النار ، لأن خالدين فيها بمعنى بئس المصير ، الا أنه — « وان كان فى معناه فلا يدل عليه بطريق التصريح فالتصريح مما يؤكده » (١١٩) .

وتؤكد الآيات بعد ذلك معنى الايمان الصحيح بعد الدعوة الصريحة اليه (١٢٠) ، فتذكر أنه ليس ثمة شىء ما يقع فى هذا الكون الا بعلم الله — تعالى — وارادته .

« ما أصاب من مصيبة الا باذن الله » والأسلوب فى تقرير هذه الحقيقة اشتمل على عدة مؤكدات : أسلوب القصر من النفى والاستثناء وتنكير مصيبة الواقعة فى سياق النفى حيث يفيد ذلك العموم ، ودخول « من » على الفاعل ، وليس ثمة شك فى أن القصر هنا حقيقى ، وهو قصر صفة « اصابة المصيب » على موصوف هو « كونها باذن الله » وهذا المعنى وثيق الصلة بالايمان « فان من يؤمن بالله فيصدقه يعلم الا تصيبه مصيبة الا باذن الله» (١٢١) «والمراد بالمصيبة : الرزية وما يسوء العبد فى نفس أو مال أو ولد ، أو قول ، أو فعل ، أى ما أصاب احدا من رزايا الدنيا أى رزية كانت ، وجوز أن يكون المراد بالمصيبة الحادثة من شر أو خير ، وقد نصوا على أنها تستعمل فيما يصيب العبد من الخير ، وفيما يصيبه من الشر ، لكن قيل انها فى الأول من الصوب أى المطر ، وفى الثانى

---

(١١٩) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٢٥ ج ٣٠ .

(١٢٠) الدعوة لصريحة الى الايمان سبقت فى قوله تعالى : فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا » .

(١٢١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازى ص ٢٦ ج ٣٠ .

من اصابة السهم ، والأول هو الظاهر ، وان كـان الحكم بالتوقف على الاذن عاما » (١١٢) .

و « اذن الله » ارادته ـ سبحانه ـ وتمكينه ـ عز وجل ـ كأن الرزية بذاتها متوجهة الى العبد ، متوقفة على ارادته تعالى ، وتمكينه ـ جل وعلا ـ (١٢٣) .

وفى تعلق الآية الكريمة بالأمر الذى سلف بالايمان تتبين بوضوح الصلة الوثيقة بين الآيات فى السورة القرآنية ، وتتأكد أيضا الوحدة المعنوية فى داخل السورة ، كما أن تقرير تلك الحقيقة ، وقصر حدوث أى مصيبة على اذن الله وارادته يلفتنا الى أن الايمان الذى يدعو القرآن اليه « هو الايمان الذى يرد كل شىء الى الله ، ويعتقد أن كل ما يصيب من خير أو شر فهو باذن الله ، وهى حقيقة لا يكون ايمان بغيرها ، فهى أساس جميع المشاعر الايمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها وعلى أية حال فهذا جانب ضخم ينشئه الاسلام فى ضمير المؤمن فيحس يد الله فى كل حدث ، ويرى يد الله فى كل حركة ، ويطمئن قلبه لما يصيبه من الضراء والسراء ، يصبر للأولى ويشكر للثانية وقد يتسامى الى آفاق فوق هذا ، فيشـكر فى السراء والضراء ، اذ يرى فى الضراء ـ كما فى السراء ـ فضل الله ورحمته بالتنبيه ، أو بالتكفير ، أو بترجيح ميزان الحسنات ، أو بالخير على كل حال » (١٢٤) .

وتكشف الآية الكريمة أثر الايمان الواضـح فى مواجهة أحداث الحياة « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » . وقد قيل فى تفسير هذه الهداية :

---

(١٢٢) روح المعانى ص ١٠٩ جـ ٢٨ .

(١٢٣) السابق نفسه .

(١٢٤) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٨ جـ ٦ .

« (يهد قلبه) عند المصيبة أو عند الموت ، أو المرض أو الفقر أو القحط ، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع ، وقال أهل المعانى: يهد قبله للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء »(١٢٥)

وقال ابن عباس : هو أن يجعل الله فى قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » (١٢٦) .

قال الكلبى : هو اذا ابتلى صبر ، واذا أنعم عليه شكر ، واذا ظلم غفر » (١٢٧) .

وأوثر تفسير ابن عباس لتناسبه مع اطلاق الهداية ، وفى ظلال تلك الهداية « يفتح الله تعالى القلب على الحقيقة اللدنية المكنونة ، ويصله بأصل الأشياء والأحداث ، فيرى هناك منشأها وغايتها ، ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح ، ثم يعرف المعرفة الواصلة الكلية فيستغنى عن الرؤية الجزئية المحفوفة بالخطأ والقصور » (١٢٨) .

ولما كانت تلك الهداية المطلقة أثرا للايمان بالله ، والايمان أمر طويت عليه القلوب فلا يعلمه الا الله تعالى ، لما كان ذلك كله جاء ختام الآية الكريمة متناسبا مع تلك المعانى أشد ما يكون التناسب « والله بكل شىء عليم » وبذا يقر فى وجدان المؤمن أن الايمان ينبغى أن يكون مصحوبا بصدق وتسليم لأمر الله ، حيث أن تفضله تعالى بالهداية لقلب عبده مرهون بايمانه الصحيح .

---

(١٢٥) التفسير الكبير للرازى ص ٢٦ جـ ٣٠ .

(١٢٦) تفسير القرطبى ص ١٣٩ جـ ١٨ ، هكذا : روح المعانى للألوسى ص ١٠٩ جـ ٢٨ .

(١٢٧) تفسير القرطبى ص ١٣٩ جـ ١٨ .

(١٢٨) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٨ جـ ٦ .

ويوالى — تعالى — دعوتهم الى كمال الايمان الذى من شأنه أن يهون المصائب « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين » « أى هونوا على أنفسكم المصائب ، واشتغلوا بطاعة الله ، واعملوا بكتابه ، وأطيعو الرسول فى العمل بسنته ، فان توليتم عن الطاعة فليس على الرسول الا التبليغ » (١٢٩) .

وفى الآية الكريمة من التعبيرات ذات الدلالة ما يدعو الى التأمل ، فقد تكرر الأمر بالاطاعة مع الرسول ، ولم يذكر جواب الشرط « فان توليتم » وجاء لفظ « رسولنا » مظهرا فى مقام الاضمار ، مع اضافته الى نون العظمة ، وتحدد دور الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى أنه البلاغ المبين بأسلوب من أساليب القصر اعتمد على طريقتين من طرقه هما : تقديم الخبر « الجار والمجرور » على مبتدئه المعرف ، وانما أما ما وراء ذلك من أسرار بلاغية : فان « تكرر الأمر (أطيعوا) للتأكيد والايذان بالفرق بين الاطاعتين فى الكيفية ، ولتوضيح مورد التولى فى قوله تعالى : (فان توليتم) أى عن اطاعة الرسول » (١٣٠) وجواب الشرط (فان توليتم) محذوف يقدر بنحو « فلا بأس عليه ، والمذكور فى الآية « فانما على رسولنا البلاغ .. » تعليل لهذا الجواب المحذوف ، وفى حذف الجواب والاستغناء عنه بذكر علته : دفع لوهم أو اتهامه بالتقصير ، مع الاستناد الى سبب هو توضيح لحقيقة دوره ، وتبيين للواجب المنوط به . وفى ذكر التولى هنا أيضا تحذير لهم من سوء عاقبته « فقد عرض عليهم من قبل لمصير الذين تولوا ، (١٣١) وهنا يقرر لهم

---

(١٢٩) تفسير القرطبى ص ١٤٠ ج ١٨ .

(١٣٠) ينظر : روح المعانى للألوسى ص ١١٠ ج ٢٨ .

(١٣١) وذلك فى قوله تعالى « ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا .. » .

أن الرسول مبلغ ، فاذا بلغ فقد أدى الأمانة ، ونهض بالواجب ، وأقام الحجة وبقى ما ينتظرهم هم على المعصية والتولى مما ذكروا به منذ قليل » (١٣٢) • وفى ذلك الصلة الدقيقة تأكيد لارتباط المعانى فى السورة •

واظهار لفظ « رسولنا » فى مقام الاضمار مع اضافته الى نون العظمة ، فذلك لتشريفه عليه الصلاة والسلام ، والاشعار بمدار الحكم الذى هو كون وظيفته — صلى الله عليه وسلم — محض البلاغ ، ولزيادة تشنيع التولى عنه » (١٣٣) •

وفى اجتماع طريقى القصر : تقديم ماحقه التأخير ، وانما فى بيان دوره — صلى الله عليه وسلم — تأكيد على تأكيد لدفع أى قصور عنه فى أدائه لدوره ، هذا فضلا عما تفيده « انما » من أنه ينبغى أن يكون معلوما أن دوره — صلى الله عليه وسلم — محصور فى البلاغ لا يتجاوزه الى الهداية ، اذ الشأن فى « انما أن تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة » (١٣٤) •

« ثم يختم هذا المقطع بتقرير حقيقة الوحدانية التى ينكرونها ، ويكذبونها ، ويقرر شأن المؤمنين فى تعاملهم مع الله :

« الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » • وحقيقة التوحيد هى أساس التصور الايمانى كله ، ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده فهذا هو اثر التصور الايمانى فى القلوب » (١٣٥) •

---

(١٣٢) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٩ جـ ٦ •

(١٣٣) ينظر : روح المعانى ص ١١٠ جـ ٢٨ •

(١٣٤) دلائل الاعجاز ص ٢٢٥ •

(١٣٥) فى ظلال القرآن ص ٥٣٩٨ جـ ٦ •

وفى تقرير حقيقة التوحيد نرى لفظ الجلالة ــ وهو أعرف المعارف ــ قد أخبر عنه بأسلوب من أساليب القصر (لا اله الا هو) تاكيدا لامر الوحدانية ، أى الله تعالى هو المختص بكونه لا معبود سواه وما دام هو المختص بذلك ، فلتخصوه أيها المؤمنون بتوكلكم عليه وحده ، اذ الأمر بالتوكل قدصيغ أيضا فى أسلوب قصر ، فواجبكم أيها المؤمنون أن تخصوه ــ وحده ــ بالاستعانة ، على نحو ما جاء فى قوله تعالى (اياك نعبد واياك نستعين) (١٣٦) « وقوله تعالى (الله لا اله الا هو) يحتمل أن يكون من جملة ما تقدم من الأوصاف الحميدة لحضرة الله تعالى من قوله (له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) فان من كان موصوفا بهذه الصفات ونحوها (فهو الله الذى لا اله الا هو) أى لا معبود الا هو ، ولا مقصود الا هو ، عليه التوكل فى كل باب ، واليه المرجع والمآب وقوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) بيان أن المؤمن لا يعتمد الا عليه ، ولا يتقوى الا به ، لما أنه يعتقد أن القادر بالحقيقة ليس الا هو »(١٣٧) وفى ظل هذا الاحتمال نرى تناجى الآيات وترابطها حيث افتتحت السورة بتسبيحه ــ سبحانه ــ وافراده بالملك ، وافراده بالحمد ، والاخبار بقدرته المطلقة ، وها هى ذى تلك المعانى تطالعنا ثم فى ثوب جديد من تخصيصه ــ سبحانه ــ بالوحدانية ، وقصر توكل المؤمنين عليه وحده .

كما أن ثمة رباطا بين قوله ــ تعالى ــ « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وقوله ــ عز وجل شأنه ــ « فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين » اذ هو أيضا « بعث لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على التوكل عليه ، والتقوى به فى أمره حتى ينصره الله على من كذبه وتولى عنه » (١٣٨) .

---

(١٣٦) الآية ٥ من سورة الفاتحة .

(١٣٧) التفسير الكبير للرازى ص ٢٦ ج ٣٠ .

(١٣٨) الكشاف ص ١١٥ ج ٤ .

« واظهار لفظ الجلالة فى موقع الاضمار للاشعار بعلة التوكل أو الأمر به ، فان الالوهية مقتضية للتبتل اليه تعالى بالكلية ، وقطع التعلق بالمرة عما سواه من البرية ، وذكر بعض الأجلة أن تخصيص المؤمنين بالأمر بالتوكل لأن الايمان بأن الكل منه تعالى يقتضى التوكل عليه ، ومن هنا قيل : ليس فى الآيات — لمن تأمل — فى الحث على التوكل أعظم من هذه الآية ، لايمائها الى أن من لا يتوكل على الله تعالى ليس بمؤمن » (١٣٩) .

ونصل — أخيرا — الى المقطع الأخير من السورة حيث يخاطب الله تعالى المؤمنين بما ينهضن بهم الى الفوز فى السباق الذى يكون فى يوم الجمع يوم التغابن . وكان امتهيد لهذا الخطاب قوله تعلى « الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فكان « على ما قال الطيبى: كالخاتمة والفذلكة لما تقدم ، وكالمخلص الى مشرع آخر » (١٤٠) .

والمشرع الآخر هو هذا النداء الذى يحمل تحذيرا مما يعوق عن الفوز ، وحثا على انتهاج سبل الخير استجابة وبذلا واستجماعا لكل معانى التقوى :

«يأيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم (١٤) انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم (١٥) فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١٦) ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم (١٧) عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم (١٨) .

---

(١٣٩) روح المعانى ص ١١٠ ج ٢٨ .

(١٤٠) روح المعانى ص ١١٠ ج ٢٨ .

الأزواج والأولاد نعمتان من نعم الله تعالى امتن بهما على عباده : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ... » (٤١) والأولاد هم موضع عطف الآباء وحنوهم على نحو ما قيل :

وانما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
لوهبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمض

فكيف يصبح من هؤلاء وأولائك أعداء ؟

لقد جاء التعبير القرآني غاية فى الدقة ، حيث جعل عداوة الأزواج والأولاد فى بعضهم وليست منهم جميعا ، استفيد ذلك من التعبير بـ « من » التى هى للتبعيض (١٤٢) ، فالعداوة من بعض الأزواج والأولاد ، وعداوة هذا البعض قد يقصد بها : الخصومة والأذى والعقوق « فمن الأزواج أزواجا يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ويجلبن عليهم ، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى » (١٤٣) وقد قصد بالعداوة : ما يكون من نتائج حبهم الشديد والتعلق بهم « فيحملون بينهم وبين الطاعات والأمور النافعة لهم فى آخرتهم ، وقد يحملونهم على السعى فى اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة أنفسهم ، كما روى عنه ـ صلى الله عليه وسلم: « يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يعيرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك »(١٤٤) .

---

(٤١١) الآية ٧٢ من سورة النحل .
(١٤٢) ينظر : البحر المحيط ص ٢٧٩ جـ ٨ .
(١٤٣) روح المعانى ص ١١٠ جـ ٢٨ .
(١٤٤) السابق نفسه .

ومما روى فى أسباب النزول يتصل بهذا المعنى : ما « روى الترمذى عن ابن عباس ، وسأله رجل عن هذه الآية « يأيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » — قال : هؤلاء رجل أسلموا من مكة وأرادوا أن يأتوا النبى — صلى الله عليه وسلم — فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبى — صلى الله عليه وسلم — فلما أتوا النبى — صلى الله عليه وسلم ورأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم .. » الآية هذا حديث حسن صحيح » (١٤٥) .

ولما كان القرآن الكريم يخاطب البشرية على مدى الزمان كله ، فان العبرة فيه بعموم اللفظ وليست بخصوص السبب ، ويكون المقصود — اذن — « التنبيه — الى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوا .. ان هذا يشير الى حقيقة عميقة فى الحياة البشرية ، ويمس وشائج متشابكة فى التركيب العاطفى وفى ملابسات الحياة سواء ، فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله ، كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير فى تبعات الايمان اتقاء للمتاعب التى تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقى ما يلقاه المجاهد فى سبيل الله » (١٤٦) .

ولما كانت العداوة فى الأزواج والأولاد ليست أمرا ذاتيا ، ولم يكن كل من الأزواج والاولاد عدوا بذاته ، بل عدوا بفعله ، كان التوجيه هنا أمرا بالحذر والتوقى من هذه العداوة بينما فى عداوة الشيطان التى هى أمر يتعلق بذاته جاء الأمر باتخاذه عدوا « ان الشيطان لكم

---

(١٤٥) تفسير القرطبى ص ١٤١ جـ ١٨ .

(١٤٦) فى ظلال القرآن ص ٣٥٨٩ جـ ٦ .

عدو فاتخذوه عدوا » (١٤٧) ، وتكون العداوة التى دعى المؤمنون الى مواجهتها بالحذر أمرا يسهل التغلب عليه بتغليب داعى الايمان على نداء العاطفة .

ولما كانت قضية هذه العداوة مستغربة فقد أكدها القرآن اهتماما بها ، وحملا على التسليم بوجودها ، فأدخلت ان على جملة اسمية « ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم » والضمير فى الفعل « فاحذروهم » « للعدو فانه يطلق على الجمع .. أو هو للأزواج والأولاد جميعا » (١٤٨) وفى عوده على الأزواج والأولاد جميعا ما يتناسب مع حرص المؤمن وتوقيه الدائم من أن يرد موارد المهلكة بسبب الأزواج والأولاد .

ومهما يكن من أمر الأزواج والأولاد من حيث ما يصدر من بعضهم من جفاء واساءة أو ما يتسببون فيه من ارتكاب لمخالفات أو تقصير فى الطاعات ، فان الأزواج والآباء مدعوون الى العفو عنهم ونسيان جريرتهم « وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم » ، والدعوة تلح فى نسيان كل آثار ما صدر عن الأزواج والأولاد واعتباره كأن لم يكن حيث اشتملت على ثلاثة أفعال : « وان تعفو » عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا ، أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة بأن لم تعاقبوهم عليها (وتصفحوا) بترك التثريب والتعيير (وتغفروا) تستروها باخفائها وتمهيد معذرتهم فيها » (١٤٩) ، هذا مع ربط تلك الدعوة بمغفرة الله تعالى ورحمته « فان الله غفور رحيم »

---

(١٤٧) الآية ٦ من سورة فاطر .

(١٤٨) روح المعانى ص ١١١ ج ٢٨ .

(١٤٩) نفسه .

ان فى هذا الربط حضا على معاملة الأزواج والأولاد بالمغفرة لأخطائهم ، وقيام العلاقة بهم دائما على الرحمة وهذه الجملة قائمة مقام الجواب ، وكانت كل تلك المؤكدات فى الحث على العفو والصفح لأن الاساءة من هؤلاء أشد نكاية ، وأمر ألما .

ويتبع هذا التحذير تحذير آخر الا أنه أعم وأشمل : « انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » ، وعد الأموال والأولاد فتنة قضية أكدت أيضا بما صيغت فيه من أسلوب قصر « انما » . « وقدمت الأموال على الأولاد » لأنها أعظم فتنة « كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » (١٥٠) ، ولم تدخل « من » هناك كما دخلت فى الآية السابقة « قال الحسن : فى قوله تعالى « ان من أزواجكم » أدخل « من » للتبعيض ، لأن كلهم ليسوا بأعداء ، ولم يذكر « من » فى قوله تعالى « انما أموالكم وأولادكم فتنة » لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغل القلب بهما » (١٥١) .

وكثير من المفسرين على أن « فتنة » : بلاء ومحنة ، وشغل عن الآخرة (١٥٢) ، وفسرت أيضا بأنها اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه (١٥٣) ، وكلا المعنيين محتمل ، وقد عرفنا

---

(١٥٠) البحر المحيط لأبى حيان ص ٢٧٠ جـ ٨ ، وكذا روح المعانى ص ١١٢ جـ ٢٨ .

(١٥١) تفسير القرطبى ص ١٤٣ جـ ١٨ .

(١٥٢) ينظر : البحر المحيط ص ٢٧٩ جـ ٨ ، وتفسير الرازى ص ٢٧ ص ٣٠ ، وتفسير لقرطبى ص ١٤٣ جـ ١٨ ، والكشاف ص١١٦ جـ٤ وروح المعانى ص ١١١ جـ ٢٨ .

(١٥٣) تفسير ابن كثير ص ٣٧٦ جـ ٤ ، ونحوه فى تفسير البيضاوى ص٤٧٣ .

أن الابتلاء يكون بما هو شر وبما هو خير امتحانا وتمحيصا للمؤمن « ونبلوكم بالشر والخير فتنة »(١٥٤) .

وتلك الفتنة لها سلطانها على النفس والقلب ، ويشهد بذلك تنكيرها الذى هو لتعظيمها ، قال الامام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى حسين بن واقد حدثنى عبد الله بن بريدة ، سمعت أبا بريدة يقول : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب ، فجاء الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال « صدق الله ورسوله انما أموالكم وأولادكم فتنة » نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » (١٥٥) .

واستنقاذا للنفس من فتنة المال والولد يعلقها الله تعالى بما عنده من أجر هو أعظم من فتنة المال والولد ، فيقول « والله عنده أجر عظيم » وذلك الأجر العظيم لمن آثر محبة الله وطاعته على محبة الأولاد والسعى لهم ، ويشمل ذلك الأجر : جنته ـ سبحانه ـ ورضوانه . كما يشير اليه قوله تعالى « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله »(١٥٦) .

وبعد التحذير من عداوة بعض الأزواج والأولاد ، والتنبيه الى

---

(١٥٤) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء .

(١٥٥) تفسير ابن كثير ص ٣٧٦ ج ٤ .

(١٥٦) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة آل عمران .

انقاء فتنة المال والولد يجىء الأمر بالتقوى ، والسمع والطاعة ، والانفاق للمال فى سبل الخير « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

والأمر بالتقوى هنا قيد بالاستطاعة « فاتقوا الله ما استطعتم » اذ « ما » التى تقدمت على الفعل « استطعتم » مصدرية ظرفية (١٥٧)، أى اتقوا الله عز وجل وأبذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم ، وهذا الأمر، وما قيد به هو — فى تقديرى — حث على استفراغ الوسع ، وبذل أقصى الجهد فى تقوى الله ، وهو — على هذا النحو الذى جاء به أشد ما يكون تناسبا بسورة « التغابن » فان الدعوة الى احراز قصب السبق فى يوم الجمع يوم التغابن يجب أن تستنهض الهمم ، وتشحذها لبذل أقصى ما يمكن من جهد وصولا الى الفوز ، وذلك ما نراه فى « فاتقوا الله ما استطعتم » ، وحين تتلى هذه الآية فاننا نستحضر الآية الكريمة من سورة آل عمران « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » (١٥٨) ، ونرى الأمر بالتقوى فى آية آل عمران غير مقيد فكيف يوفق بينهما .

قيل : « ان آية التغابن ناسخة لقوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته» ذكر الطبرى : وحدثنى يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته» قال : جاء أمر شديد ، قالوا : ومن يعرف قدر هذا أو يبلغه فلما عرف الله أنه قد اشتد ذلك عليهم نسخها عنهم ، وجاء بهذه الآية الأخرى

---

(١٥٧) سماها ابن هشام : مصدرية زمانية ، وذكر من أمثلتها هذه الآية الكريمة « فاتقوا الله ما أستطعتم » وأنظر : مغنى اللبيب ج ٢ ص ٦ ، ٧ .

(١٥٨) الآية ١٠٢ .

فقال : « فاتقوا الله ما استطعتم » (١٥٩) • والذين عنوا بالناسخ والمنسوخ عدوا آية آل عمران من المنسوخ فذكرت ضمن الآيات المنسوخه من السورة ، وبينت مناسبة النسخ ، وكان ترتيبها بين آيات السورة التى نسخت الآية السابعة ، وقيل « انه لما نزلت لم يعلموا تأويلها حتى سألوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم فقلوا : يارسول الله ما حق تقاته ؟ قال : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، فشق نزولها عليهم ، فقالوا : يارسول الله لا نطيق ، فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا كما قالت اليهود : سمعنا وعصينا ولكن قولوا : سمعنا وأطعنا ونزلت بعدها « وجاهدوا فى الله حق جهاده » فكان هذا أعظم من الأول ومعناها اعملوا حق عمله ، وكادت عقولهم تذهل ، فلما علم الله ما قد نزل بهم من هذا الأمر يسر الله ذلك وسهله ونزلت « فاتقوا الله ما استطعتم » فصارت ناسخة لما قبلها » (١٦٠) •

وقيل أيضا : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيما تطوع به من نافلة أو صدقة ، فانه لما نزل قوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » اشتد على القوم فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله ــ تعالى ــ تخفيفا عنهم : « فاتقوا الله ما استطعتم » فنسخت الأولى ، قاله ابن جبير » (١٦١) •

وقيل هى محكمة لا نسخ فيها ، قال ابن عباس : قوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » انها لم تنسخ ، ولكن حق تقاته أن يجاهد لله حق

---

(١٥٩) تفسير القرطبى ص ١١٤ جـ ١٨ •

(١٦٠) الناسخ والمنسوخ لأبى القاسم هبة الله بن سلامة أبى النصر ص ١٠٧ ، ١٠٨ (بهامش كتاب : أسباب النزول للواحدى) •

(١٦١) تفسير القرطبى ص ١٤٥ جـ ١٨ •

جهاده ، ولا يأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم » (١٦٢) .

وننتهى من هذا الخلاف الى أن كلا من الرأيين لا يوجد ما يرجح أحدهما على الآخر ، وحينئذ ينبغى أن يكون بحثنا فى الجمع والتوفيق بين هاتين الوجهتين فنقول : « من قال بالنسخ جنح الى أن المراد من حق تقاته ما يحق له ويليق بجلاله وعظمته ، وذلك غير ممكن « وما قدروا الله حق قدره » ومن قال بعدم النسخ جنح الى أن حق من حق الشىء بمعنى وجب وثبت ، والاضافة من باب اضافة الصفة الى موصوفها ، وأن الأصل اتقوا الله اتقاء حقا أى ثابتا وواجبا على حد ضربت زيدا شديد الضرب تريد الضرب لشديد ، فيكون قوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » بيانا لقوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » (١٦٣) .

وتتوالى الأوامر — بعد قوله تعالى « فاتقوا ما استطعتم » — : « واسمعوا وأطيعوا وانفقوا خيرا لأنفسكم » وكأن هذه الأوامر المجتمعة هى لبيان التقوى قدر الجهد والاستطاعة ، والسمع والطاعة هما سمة الامتثال ، وقد حذف المفعول من كل منهما ليكون الامتثال فيهما عاما فى كل ما يسمع ويطاع من الله — تعالى — ومن رسوله — صلى الله عليه وسلم ، وأشعر أيضا أن الأمر بالسمع والطاعة هنا — بعد الأمر بالتقوى — يدفع الأمة الى أن تكون دائما حريصة على تلقى هذا الدين ، واستمرار السماع لأوامره ونواهيه ، فهى دعوة الى استدامة التجاوب بين المنهج والأتباع والارتباط بمصادر الدين من كتاب وسنة .

وما دام الحديث موصولا برسم سبيل الفوز فى مضمار السباق الذى تبدو نتائجه يوم القيامة ، وقد بين من قبل ما يعوق هذه السبيل من

---

(١٦٢) نفسه ص ١٤٤ .

(١٦٣) روح المعانى جـ ٤ ص ١٦ .

عداوة بعض الأزواج والأولاد ، وفتنة المال والولد أيضا ، فان الدليل على اجتياز كل تلك المعوقات ، والتخلص من سلطان المال والأولاد يكون بانفاق المال فى وجوه الخير ، ومن ثم جاء الأمر بانفاقه خاتمة لتلك التوجيهات « وأنفقوا خيرا لأنفسكم » . والأمر هنا عام فى المفروض منه وهو الزكاة ، وفى النفل أيضا وهو صدقة التطوع ، ولا وجه لتقييده بواحد منهما ، غير أن الذى عليه ترتيب الأحقيات فى الشرع أن تكون الصدقة بعد نفقة النفس والأهل والولد ، فقد روى عنه — صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل : عندى دينار ؟ قال « أنفقه على نفسك » قال — عندى آخر ؟ قال : « أنفقه على عيالك » قال : عندى آخر ؟ قال : « أنفقه على ولدك » قال عندى آخر ؟ قال «تصدق به»(١٦٤)

وارتبط الأمر بالانفاق ببيان عقباه ،وهى قوله تعالى «خيرا لأنفسكم فهى خير صائر الى المنفقين أنفسهم ، وانتصب « خيرا » بفعل مضمر عند سيبويه دل عليه : « أنفقوا » كأنه قال : ايتوا فى الانفاق خيرا لأنفسكم (١٦٥) ، أو قدموا خيرا لأنفسكم من أموالكم ، وهو عند الكسائى والفراء نعت لمصدر محذوف أى أنفقوا انفاقا خيرا لأنفسكم ، وهو عند عبيدة خبر كان مضمرة ، أى يكن خيرا لكم ، ومن جعل الخير المال فهو منصوب بـ « أنفقوا » (١٦٦) وفى هذا الأخير بعد من حيث المعنى (١٦٧) .

وانفاق المال فى وجوه الخير دليل التحرر من سلطانه ، والخلاص من عبوديته ، وهو أيضا دليل تغلغل الايمان فى النفس وانتصاره على شحها وبخلها ، ولذا جاء التذييل أشد ما يكون ارتباطا بما تقدمه حيث

---

(١٦٤) ينظر : تفسير القرطبى ص ١٤٦ جـ ١٨ .
(١٦٥) الكشاف ص ١١٦ جـ ٤ وقد ذكر هذا الوجه دون ما سواه .
(١٦٦) ينظر : تفسير القرطبى ص ١٤٦ جـ ١٨ وأيضا : البحر المحيط ص ٢٨٠ جـ ٨ ، وكذا : روح المعانى ص ١١٢ جـ ٢٨ .
(١٦٧) روح المعانى ص ١١٢ جـ ٢٨ .

كان « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » • وقد جاءت الصياغة لهذا التذييل باضافة الشح الى النفس ، وبنـــاء الفعل يوق للمجهول ، والافراد فى الشرط « من » والجمع فى جملة الجواب التى جاءت مقترنة بالفاء •• وقبل بيان أسرار الصياغة فى ذلك كله نبين معنى الشح ، انه « أن تكون النفس كزة حريصة على المنع ، كما قال :

يمارس نفسا بين جنبيه كزة اذا هم بالمعروف قالت له مهلا

والبخل هو المنع نفسه ، وقال الراغب الشح : حرص مع بخل ، وعن الحسن أنه قال البخل : أن يبخل الانسان بما فى يده ، والشح أن يشح على ما فى أيدى الناس ، وأخرج عبد بن حميـــد وابن جرير وابن ابى شيبة وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشـــعب والحاكم وصـــححه ، وجماعة عن ابن مسعود أن رجلا قال له : انى أخاف أن أكون قد هلكت، قال وما ذاك ؟قال : انى سمعت الله تعالى يقول « ومن يوق شح نفسه• الآية » وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج منى شىء • فقال له ابن مسعود: ليس ذاك بشح ولكنه البخل ولا خير فى البخل ، وان الشح الذى ذكره الله تعالى أن تأكل مال أخيك ظلما » • وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر ـــ رضى الله ـــ تعالى ـــ عنهما ـــ أنه قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ولكنه البخل ، انما الشـــح أن تطمح عين الرجل الى ما ليس له » ولم أر لأحد من اللغويين شيئا من هذه التفاسير للشح ، ولعل المراد أنه البخل المتناهى بحيث يبخل المتصف به بمال غيره ، أى لا يود جود الغير به ، وتنقبض نفسه منه ، ويســـعى فى أن لا يكون ، أو بحيث يبلغ به الحرص الى أن يأكل مال أخيه ظلمـــا ، أو تطمح عينه الى ما ليس له ولا تسمح نفسه بأن يكون لغيره » (١٦٨) ، والشـــح أيضا « يعم المـــال وغيره ، يقال فلان شحيح بالمـــال ، وشحيح بالجاه،

---

(١٦٨) روح المعانى ص ٤٧ جـ ٢٨ • •

وشحيح بالمعروف » ، ففى الشح — اذن — شدة الحرص ومنع للمال ولغيره مما ينفق (١٦٩) .

وقد أضيف الى النفس لأنه غريزة فيها (١٧٠) ، وبنى الفعل « يوق » للمجهول ، اشارة الى أن ثمة عوامل كثيرة للوقاية من هذا الشح ، وهى عوامل خفية ، يجىء فى مقدمتها صدق الايمان الذى يترتب عليه توفيق الله للمؤمن الى مخالفة نفسه فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الانفاق ، ذلك أنه تعالى قد وعد فى هذه السورة « ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم » . فليست أسباب الوقاية من الشح من جانب واحد ، انها من العبد بالصدق فى الايمان ، ومن الله تعالى بالتوفيق .

« وجاء الافراد أولا — فى الشرط — والجمع ثانيا — فى الجواب رعاية للفظ « من » ومعناها ، وايماء الى قلة المتصفين بذلك فى الواقع عددا ، وكثرتهم معنى :

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف — أمر عنا — »(١٧١)

وجاءت جملة الجواب مشتملة على عدة مؤكدات لفوز هؤلاء الذين وقوا شح أنفسهم ، من اسمية الجملة ، وتوسط ضمير الفصل ، والباس المعنى ثوبا من القصر بتعريف الطرفين .. أولئك ... المفلحون » والقصر تأكيد على تأكيد ويعود هذا التأكيد أخيرا على امتداح من تخلص من الشح .

---

(١٦٩) التفسير الكبير للرازى ص ٢٨ ج ٣٠ .

(١٧٠) روح المعانى ص ٤٧ ج ٢٨ .

(١٧١) روح المعانى ص٤٧ ج ٢٨ .

وتتأكد الدعوة الى الانفاق فى استدعاء رقيق لطيف « ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم » .

لا يشك أحد فى أن ما بأيدينا ملك لله تعالى اذ هو الذى منحنا اياه، ومع هذا — حين يدعونا — الى الانفاق يصور هذا الانفاق على انه قرض منا له — سبحانه — وفى ايثار القرض فى مقام الانفاق بعث للأمن فى النفس حتى تطمئن الى عود ما أنفقته فى الخير ويعد الله تعالى أنه حين يعود لن يكون كما كان ، بل سيعود أضعافا مضاعفة والدعوة الى الانفاق بهذا الأسلوب استعارة تمثيلية (١٧٢) يبدو سرها البلاغى فى فرط المسارعة الى الاقبال على انفاق المال فى وجوه الخير ، ذلك « أن مجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه ، كفيل بأن يطير به الى البذل طيرانا ، ان الناس ليتسابقون عادة الى اقراض الثرى الملىء منهم ، وهم كلهم فقراء ، ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثرى الملىء ! فكيف اذا كانوا يقرضون الغنى الحميد » .

ومضاعفة الجزاء على الانفاق فى سبيل الله مرتبطة بالحسن المصاحب لهذا الانفاق حيث قال تعالى « قرضا حسنا » « والقرض الحسن : الانفاق بالاخلاص وتحرى أكرم المال وأفضل الجهات . وذكر بعضهم أن القرض الحسن ما يجمع عشر صفات : أن يكون من الحلال ، فان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا ، وأن يكون من أكرم ما يملكه المرء ، وأن يكون والمرء صحيح شحيح يأمل الغنى ويخشى الفقر ، وأن يضعه فى الأحوج الأولى ، وأن يكتم ذلك ، وأن لا يتبعه بالمن والأذى ، وأن يقصد به وجه الله تعالى ، وأن يستحقر ما يعطى — وان كثر — وأن يكون من أحب أمواله اليه ، وأن يتوخى فى ايصاله للفقير ما هو أسر لديه من الوجوه كحمله الى بيته» (١٧٣) .

---

(١٧٢) روح المعانى ص ١١٢ ج ٢٨ .
(١٧٣) روح المعانى ص ١٥٠ ج٢٧ .

أما الجزاء على هذا القرض الحسن فهو « يضاعفه لكم ويغفر لكم » والمضاعفة منه ـ سبحانه ـ أدناها أن يجعل الواحد عشرا ، وقد يزيد المضاعفة فيجعله سبعمائة وقد يزيد فيجعله أكثر على نحو ما قال تعالى « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » (١٧٤) .

ويضاف الى مضاعفة الجزاء على القرض الحسن تفضله ـ سبحانه ـ بغفران خطايا المقرض وزلاته ، وذلك ببركة الانفاق . وهنا أيضا نلاحظ عظمة دور الانفاق فى تحقيق الفوز يوم القيامة ، أنه جزاء مضاعف ، وتخليص للمنفق من خطاياه التى تثقله لينهض سريعا فى مضمار السباق ، ومن ثم يبدو الارتباط الشديد لهذا الجزاء بسورة « التغابن » .

ثم يزيد الله تعالى ثقة المقرضين له بسعة عطائه ، وجميل صفحة حين يختم تلك الدعوة بقوله « والله شكور حليم » : « شكور : أى يجزى على القليل بالكثير ، وحليم أى يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات ، والخطايا والسيئات » (١٧٥) .

وهذان الوصفان أحدهما عائد الى المضاعفة ، اذ شكره تعالى مقابل للمضاعفة والآخر عائد الى غفران الذنوب ، اذ حلمه مقابل للمغفرة » (١٧٦) .

وفى الأسلوب ـ اذن ـ لون من البديع عرف لدى البلاغيين

---

(١٧٤) الآية ٢٦١ من سورة البقرة .
(١٧٥) تفسير ابن كثير ص ٣٧٧ جـ ٤ .
(١٧٦) ينظر : البحر المحيط لأبى حيان ص ٢٨٠ جـ ٨ .

باسم : اللف والنشر وهو هنا مما دعوه مرتبا (١٧٧) ولا يخفى ما فيه من جمال ، وثقة فى السامع برد كل واحد من الوصفين الى ما هو له .

ويجىء ختام السورة « عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » . انه ختام « بصفة الله التى بها الاطلاع والرقابة على القلوب ، فكل شىء مكشوف لعلمه ، خاضع لسلطانه مدبر بحكمته ، كى يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم ، وسلطانه عليهم ، وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه ، ويكفى أن يستقر هذا التصور فى القلوب ، لتتقى الله وتخلص له وتستجيب » (١٧٨) .

وهو ختام يتصل بموضوع السورة لما فيه من حث على اخلاص العمل أمام علمه — تعالى — للغيب والشهادة ، كما أن فيه تأكيدا للثقة فيما وعد الله تعالى من جزاء ومغفرة للذنوب حيث انه «العزيز الحكيم» .

ولعلى قد وفقت لما اليه قصدت من بيان لبعض أسرار التعبير القرآنى فى سورة التغابن ، فان كان ذلك فلله الحمد والمنة ، وان كان شىء آخر سواه فان أكف الضراعة مرفرعة اليه سبحانه «ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

وصلى الله — تعالى — على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١٧٧) ينظر : الايضاح للخطيب ص ٣٤ ج ٤ .

(١٧٨) فى ظلال القرآن ص ٣٥٩١ ج ٦ .